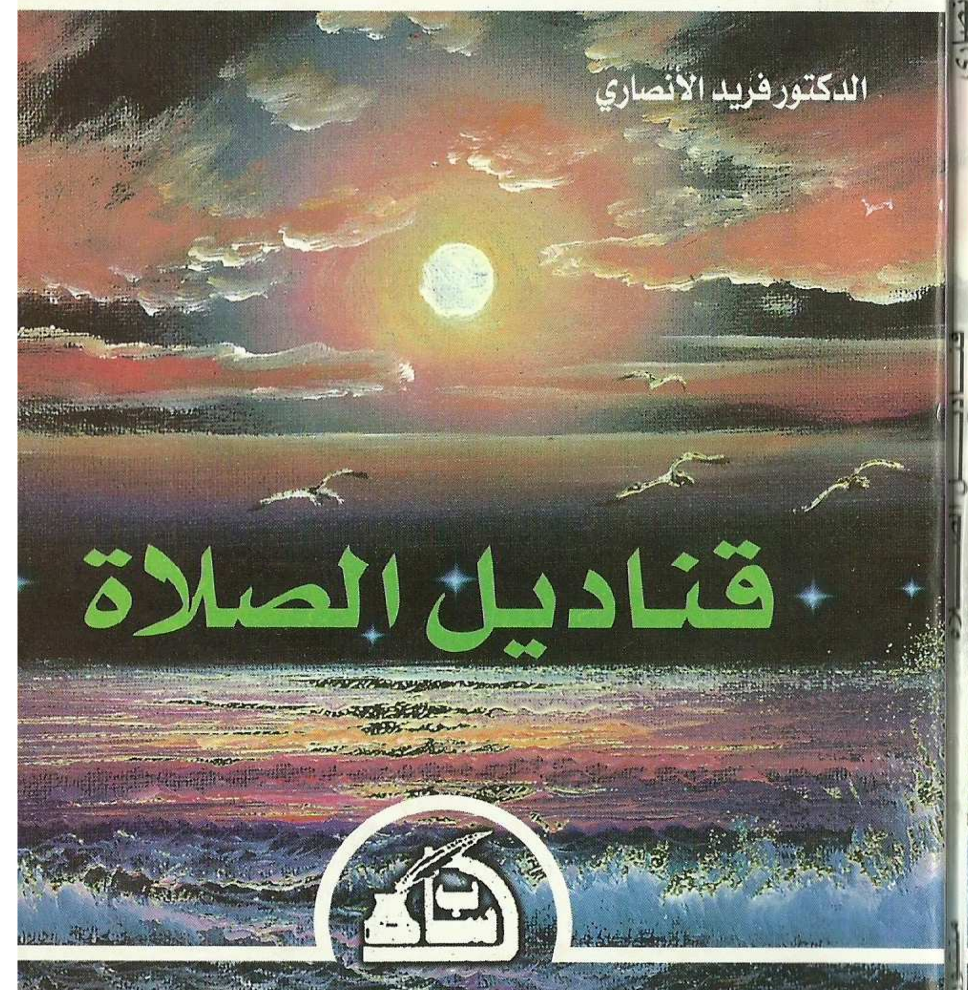
سلسلة بحوث ودراسات
2

الدكتور فريد الأنصاري



قناديل الصلاة



منشورات التجديد

الدكتور فريد الأنصاري
قناديل الصلاة
منشورات التجديد



الدكتور فريد الأنصاري

- من مواليد سنة 1960 بإقليم الرشيدية.
- عضو مؤسس لمعهد الدراسات المصطلحية التابع لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس.
- عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
- من مؤلفاته :
  - مصطلحات أصولية في كتاب الموافقات للشاطبي
  - أبجديات البحث في العلوم الشرعية
  - التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (جزءان)
  - ديوان القصائد
  - ديوان الإشارات
  - كشف المحجوب (رواية)
- أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس.

هذا الكتاب

ثر انثيالات رقراق تغوص فيه الروح دون
،لتتطهر من كل أدران الطين الذي أضحى يجلل
أبناء الصحوة وغيرهم من المسلمين الذين
غفلتهم دنيا الكدح الرهيب فكبلت فيهم لحظات
فاء والإشراق الممكنة من كشف الزغل المخاتل
تناب (جحيم الضياع الذي لا ينتهي)
واهم مكر الليل والنهار فانحدروا إلى قيعان اللهو
فلة يكرعون في صلف أجوف نخب خسران الدنيا
خرة ...

ءة متبصرة في مفردات الذات والكون، تنطلق من
دة توحيد الوجهة نحو الله الواحد الأحد الفرد
مد، لترسم بنبض الذات المتبتلة في محراب الجمال
جلال لوحة الخضوع المطلق وانقياد مفردات الكون
خالق بارئ مصور ...

ة تؤنسك فيها (قناديل الصلاة) بأنوارها المشعة
الأذان إلى الفاتحة إلى الركوع إلى السجود إلى... أنوار
كلها قلم الفقيه الشاعر الروائي بلغة إيحائية
يفة...لتستوي نصا أدبيا فريدا، وتأملات دقيقة
حركة الإنسان والكون والحياة، وإشراقات صوفية
فتح الله بها إلا على العارفين به، ومادة فقهية ثرة...
هي الرحلة التي نقترحها عليك أخي القارئ، فإذا
ئت الإدلاج إلى محبوبك فاركب معنا
اديل الصلاة)..

17 درهما

سلسلة بحوث ودراسات

فريد الأنصاري

قناديل الصلاة

مشاهدات في منازل الجمال

منشورات التجديد

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب : قناديل الصلاة

الكاتب : الدكتور فريد الأنصاري

الناشر : منشورات التجديد

الطبعة : 1420-1999

المطبعة : دارالقرويين ـ الدارالبيضاء

الإيداع القانوني : 1360 \ 99

تقديم

بقلم ذ.أحمد رزيق

كثيرة هي المصنفات والكتب التي ألفت في موضوع الصلاة ، وكثيرة هي الأقلام التي نسجت بمداد الصدق والإخلاص تفاصيل محراب التبتل بين يدي الخالق العظيم،خيوط نور تهدي السالكين إلى أقوم المسالك الموصلة إلى أعتاب الله، لاتتزاحم أبدا وإن اختلفت ألوانها وتباينت من حيث ما تشيعه من دفء وحرارة، كلها تتآزر وتلتحم ويكمل بعضها بعضا، ليستعيد الجناح المهيض عافيته، ويفلت من إسار الشرود، ليحلق في أجواء الحرية والطهر والصفاء من جديد، عبدا لله وحده، يشكل من خلال الركوع والسجود والقيام والقعود، سلوك التناغم والانسجام مع كل ذرة من ذرات هذا الكون الشاسع المسبح بحمد الله العلي القدير.

خيوط نور قد يفتح الله على اللاحق منها فيضيف إلى السابق ويزيد عليه، وقد يكتفي اللاحق بإعادة تشكيل تفاصيل المحراب كما رقشها السابق دون أن يزيد أو يضيف إلى المعمار الرائع ولو لبنة واحدة، وقد تأتي المحاولة الأخيرة باهتة ضعيفة أمام شلال الإحاطة والدقة التي وسم بها التليد..ورغم ذلك كله يبقى لكل لون طعمه الخاص ودائرته التي يملأ جوانحها بفيض لألائه، والتي قد تتسع أو تضيق حسب قوة الشعاع وقدرته على الامتداد والانتشار، وحسب مساحات الصفاء والاستجابة والقابلية الثاوية في غور ذوات يحاصرها صقيع المنافي وتتلبسها الأهواء السود.

ومن هذه الأنوار التي نحرص في لجنة البحوث والدراسات أن يعم وهجها الرباني كل نفس، وأن تصل خيوطها إلى عمق كل وجدان توقظ فيه جمال الرجاء ولذة العبادة وتحيي فيه شوق التبتل الصادق بين يدي من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتؤجج فيه رغبة الارتواء من نور الهداية..من هذه الأنوار نقدم لك أيها القارئ الكريم "قناديل الصلاة" ..

مشكاة المسافر في هذه الدنيا التي يمسخ الإنسان فيها ألف مرة في اليوم، وتمسخ معه فيها كل القيم والأفكار والأشياء الجميلة..

كوثر انثيالات رقراق تغوص فيه الروح دون تردد ، لتتطهر من كل أدران الطين الذي أضحى يجلل أرواح أبناء الصحوة وغيرهم من المسلمين الذين استغفلتهم دنيا الكدح فكبلت فيهم لحظات الصفاء والإشراق الممكنة من كشف الزغل المخاتل واجتناب (جحيم الضياع الذي لاينتهي) ، أو أغواهم مكر الليل والنهار ، فانحدروا إلى قيعان اللهو والغفلة ، يكرعون في صلف أجوف نخب خسران الدنيا والآخرة..

قراءة متبصرة في مفردات الذات والكون، تنطلق من قاعدة توحيد الوجهة نحو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، لترسم بنبض الذات المتبتلة في محراب الجمال والجلال لوحة الخضوع المطلق ، وانقياد مفردات الكون كله لرب خالق بارئ مصور..

سفر من كهف الذات المسيج بالطين وبظلمات الفجور وبالمال والأعمال إلى محراب التعبد في حضرة المعبود، سفر يدلج فيه كل المحبين إلى الله (تحفهم قناديل الأنس ويحدوهم جمال الرجاء) ، سفر من عالم الدخن والفناء إلى فضاءات الصفاء والبقاء..

تلك هي الرحلة التي نقترحها عليك أخي القارئ ، رحلة تؤنسك فيها (قناديل الصلاة) بأنوارها المشعة من الأذان إلى الفاتحة إلى الركوع إلى السجود إلى ... أنوار يشكلها قلم الفقيه الشاعر الروائي بلغة إيحائية شفيفة تمتح من مشكاة القرآن وتنهل من حوض النبوة المترع بفيض الخير والجمال ، فتستوي الرحلة نصا يريك الممحص الراغب في تصنيفه..قطعة أدبية فريدة ، وتأملات دقيقة في حركة الإنسان والكون والحياة، وإشراقات صوفية لايفتح الله بها إلا على العارفين به ، ومادة فقهية ثرة تخترق النص من أوله إلى آخره..

تلك هي الرحلة التي نقترحها عليك أخي القارئ ، فإذا شئت الإدلاج إلى محبوبك فاركب معنا (قناديل الصلاة)..

بسم الله الرحمن الرحيم

بـــارقـــة

هل دخلت أقواس النور مرة في حياتك؟ هل شهدت كوثر السلام المتدفق في مملكة الله؟.. هل ذقت من كؤوس التحيات المقدمة في جلسات التكريم؟.. وهل سبحت في موجة النور الوهاج؛ فرأيت كيف تمتد الأيدي إلى الله، مستدرة ألطاف التجلي، وأمطار الغفران، فإذا بها أجنحة مرسلة في فضاءات الأنس والجمال، وخمائل الرضوان؟..

هنا يا صاح! من بوابة الصلاة الخضراء، تستطيع أن تخرج من كهف ذاتك إلى عالم الخير والجمال الفسيح.. بعيدا عن شاطئ الصلصال النتن، وكهوف الطين المظلمة!

أن تفتح محراب الصلاة؛ يعني أنك تبحر إلى مقامات النور، تحت أشرعة السلام، عبر رياضة الصديقين والأنبياء، حيث تفيض الروح ببهائها على سائر أعضاء البدن، فتتوقد بين الجوانح قناديل خضراء، تملأ القلب سكينة ومواجيد، ذات هالات من نور، تسري بك إلى مقام الجوار الأعلى، لدى الملك العظيم!

فانظر إلى أحوال البهجة الربيعية، وهي تميد أنساما لطيفة، بالغصن السالك إلى الله، ركوعا وسجودا، حتى إذا كان مقام التجلي الكريم، أومضت بوارق الأنس في الآفاق، وتوهجت القناديل؛ احتفالا بتدفق شلال الجمال الصافي على الأغصان الساجدة. وتفتحت براعم الخشوع أزهارا، ورياحين، فإذا الربيع عبق يملأ الزمان والمكان! فتنهل النفس الكئيبة من جداول الراحة العذبة، ومنابع الرضوان الصافي؛ فرحا لا تظمأ بعده أبدا..!

ثم تهب ألطاف السلام الندية:

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته!

....

وتعود إلى وطن التراب أطهر ما تكون، وأجمل ما تكون، وأقوى على اختراق عاصفات الظلام، فما زال بين جوانحك نور علوي، لا يفتأ يستمد زيته من مشكاة الله، عند كل مطلع جديد من المطالع الخمسة، في مدار الكوكب الدري!

فهل لك إذن أن تقدح أنوار الفجر بين ضلوعك فتتخلص من أغلال التراب، وتحلق بأجنحة ملائكية في سماء الروح، إلى حيث كثبان المسك ورمال العنبر تُنبت أعشابا برية، ذات أزهار تغمر القلب بعبير السلام!

فهبي يا رياح على التلال، يبتهج الجمال!

الصلاة: هذه الرياضة الفريدة الشاملة، تفتح أشواقك على مملكة الله، وتمد فؤادك ببوارد السكينة الرقراق!

فالوريقات التي بين يديك يا صاح، رذاذ من كوثر الصلاة الفياض بأذواق التجليات العذبة، والمواجيد الندية!

فاملأ كأسك بأنداء الجمال.. وذق!

الفصل الأول:

* يا أيها الحيران.. هنا الصلاة فادخل!
* حِلْيَةُ الغُرِّ المحَجَّلين
* والصلاة نور

يا أيها الحيـران.. هنـا الصـلاة فـادخل !

أي لهيب هذا الذي يحاصرك من كل مكان؟

كل الأزاهير في قلبك تحترق تباعا، فتذروها الريح دخانا يشرد في كل اتجاه!.. كل الأشيـاء التي بين يديك، سلاسل تربطك إلى التـراب؛ فتثَّاقل عن الانطلاق بعيـدا عن معتقلات مملكة الرماد!.. أي كون؛ أم أي سجن؛ هذا الذي ترزح فيه؟ ولا نافذة تنفرج منه إلى السماء!

ويحك يا صاح! هذه أشياؤك التي تعبدها تلاحقك كل مساء فتتحطم فوق رأسك، ثم تبيت ليلتك تئن تحت ركامها!..

وتستيقظ صباح كل يوم، لتدور كالآلة في دوامة رتيبة، ترشقك مسامير ذلك الضجيج نفسه، وتخنقك رائحة تلك الملفات نفسها، وتلهب وجهك لفحات الحرائق ذاتها.. وتطول آمالك، وتتسع أطماعك، وتمتد عيناك إلى مختلف الأشكال والألوان.. ولا تخرج عن نطاق أشيائك، التي لا تعدو أن تكون ـ في نهاية المطاف ـ مجرد حفنة من تراب!

وتجري بكل قـواك خلف متـاعها، تحرق في سبيل امتلاكها كل الطاقات، وقد لا تصل فتشقى.. وقد تصل، فما أن تضع يدك عليها حتى تصير مغلولة إليها!.. فإذا بك ـ وقد سعيت لتكون مالكا ـ تصبح مملوكا، لا تستطيع الفكاك! ثم تشقى أيضا!

كم زينت لك الكلمات البراقة في إعلانات الإشهار أن تكون إلهاً! فبنيت القصور من حديد وحجر، وأجريت من تحتـها الأنهار من عرق غير طاهر، فأعجبك أن تكون لها مديرا، ثم صرت بها أسيرا!

وكم زينت لك قصائد الحشاشين أن تكون نبيئا، فبنيت القصور من الخيال، وأسست مملكة النظر، وصرت توزع الفهـوم كمـا تشـاء.. فـانطلى دجلك على الناس ردحـا من الزمن، ولكن العواصف لها موعد، فما لبثت مؤسساتك الوهمية أن تبين زيفها، فانهارت هياكلها حطبا يُلْهبه غضب المستضعفين في كل مكان!

وجئت بعد خريف قاس، عاري الأغصان، تبحث عن دفء الحق في فؤادك، وسكون الاعتـراف لذاتك باستحالة تذوق صفـاء الحيـاة، وتدفقها الكوثري؛ من كؤوس التـأله الحديدية، مهما تعددت أشكالها!

ليس لك السـاعة يا صـاح، إلا أن تفر من أشيـائك وأغلالك، لتنظر إلى نفسك من مرآة هادئة، لا انفطار فيها ولا اعوجاج، فهذا الأذان الصادح في الأفق الجميل، يدعوك لتتطلع ببصرك إلى السمـاء، وتنصت إلى الكلمات، التي تتشكل ومضات مشرقة، تلخص قصة الكون المثير كلها في لحظات..!!

* * *

هذا النور الأزرق، القادم من أفق بعيد، يرسم الآن لحظة فاصلة بين الصفاء الصادق والدجل البـهيم. فـمـا أن أعلن الكون عن انبعـاث فجـر جديد؛ حتى أضـاءت صومعـة قنديلها الأخضر، لترسم هالتـهـا الوضـاءة، صوتا يتدفق كـالشـلال الصـافي، في شكل دائري، ثم ينطلق نحو كل الجهات!

لعلك لم تصغ يوما مـا ـ وإن كنت سمعت! ـ إلى هذه الرسالة الكونية الملخصة في كلمات الأذان!

....

ـ من أنت؟ بل ما أنت؟ وما حدود آفاقك قبل يومك هذا وبعده؟..

وتحاول أن تجيب، وقد تفر إلى أشيائك الطينية مرة أخرى!.. لكنك أبدا لن تفلح في الهروب، ولا نجـاة لك إلا في الإقـدام؛ لأن الذي تفـر منه بركـان يتـفجـر من أغـوار ذاتك، فإن يخمد اليوم، فغدا له موعد جديد مع أذان جديد!

لماذا أنت وحدك تشكل نشازا في هذا النسق الجميل؟ كل الخطوط في حدائق قوس قزح تتناسق نبضاتها، عبر اندفاع الموج الراكض، والرياح المشوقة بحنين السكون، في محاريب الجمال.

آه أيها الآسف على أيامك! لولا هذا العمر الذي احترق في عد كؤوس اللذة الكاذبة، ما كنت تعرف لسعات هذا الألم الذي يحاسبك، فكفى أسفا! إن الندم وحده لا يكفي لتصحيح مسار التاريخ! وافتح بوابة ربيع جديد؛ لترى جمال الخمائل التي حرمتها في زمن التيه؛ تتشكل دوالي أمل، ومقامات أنس:

ها أنت ترى بأم عينك الأرض وهي تدور؛ ترسم لحظات العمر، وفصوله المختلفة، فكم ربيعا شهدت وكم خريفا؟ ألم تكن الفصول وما كان آدم؟ حقا: و«ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع!» (1).

كانت حشرة تغالب التنفس في يومها الثامن من عمرها، وهي تردد:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش *** ثمانين حولا لا أبا لك يسأم!

ومتى كان الشعور الزمني لدى الإنسان هو المقياس الحقيقي لمعرفة طول الأعمار وقصرها؟

ويطير الجناح تلو الجناح، وفي كل جدفة تهوي ريشة مع الريح إلى خلف، ويطمع الجناح أن يزيد صعدا.. كلا! فما بقي من الريش إلا آحادا معدودات، لا تكفي إلا لرسم آخر رعشات الخريف!

هل تعرف الآن مكانك الدقيق، في هذه الذرة السابحة في مدارات السماء، بين ملايين الأفلاك والمجرات؟

أيمكنك أن تقف مكانك، ولا تتحرك؟ أو بإمكانك أن تعود هاربا إلى الوراء، نحو بحر لجي من الظلمات؟ وهل ثمة ظلام لا يفضحه الأذان؟

الأرض راحلة طوعا لا كرها يا صاح، فاختر منهما ما أنت تشاء!

* * *

وتمد بصرك الحائر إلى أفق أبعد من مدار النظر فيما وراء النظر؟..

كانت العاصفة أغنى ما تكون، وكان البرد أقرس ما يكون! لحظة واحدة، قد تكون كافية لجرفك إلى جحيم الضياع الذي لا ينتهي!

وتسرع في لهفة المستغيث، لتدخل مدارك الهادئ، ثم تحس بالدفء يورق في قلبك جنة ذات قناديل خضر، توقد من زيت مبارك، تمده كلمات الله! فتخر إلى الأرض ساجدا:

ـ الملك لله الواحد القهار!

وأخيرا وجدت نفسك.. فاحتضنتَ دقات قلبك التي لم تزل تتلاشى في الظلمات، وتضيع في مجاهيل الخراب، إلى أن انشدت إلى تيار النور الإلهي، المتدفق من مشكاة الأذان!

فقد كانت كلماته تعمر الكون الرحيب، وكان الصوت يمتد أطول ما يكون «والمؤذن يغفر له مد صوته، ويصدقه من سمعه من رطب ويابس»(2) فتتحرك قلوب الكائنات كلها، وترتفع الأعين والأغصان، راجية، نحو السماء.. هذه لحظات عروج الأجنحة المثقلة؛ بعيدا عن برك الآثام الآسنة. فأبواب الخير وحدها مفتحة، في غيبة إبليس المدبر في الظلمات، أوَليس «إذا نودي بالصلاة فتحت أبواب السماء، واستجيب الدعاء»؟(3) فهلم إذن يا صاح، فقد «أدبر الشيطان وله ضراط؛ حتى لا يسمع التأذين!»(4) فَرَقاً من كلمات الحق المبين!

ـ الله أكبر!.. الله أكبر!..

ـ أشهد ألا إله إلا الله!.. أشهد ألا إله إلا الله!..

ـ أشهد أن محمدا رسول الله!.. أشهد أن محمدا رسول الله!..

ـ حي على الصلاة!.. حي على الصلاة!..

ـ حي على الفلاح!.. حي على الفلاح!..

ـ الله أكبر!.. الله أكبر!..

ـ لا إله إلا الله!..

وتمضي كلمات النشيد تخترق الآفاق، حتى تستحيل أصداء جميلة تنبعث من أكباد الجبال، والطير، واللهب، والماء.. نسقا من كل الجواهر، والأشكال، والألوان «ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته»(5) فيا أيها العقل المحتار بين الحجب والأستار «ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب، وكثير من الناس، وكثير حق عليه العذاب؟»(6) أي تناسق هذا بين الأرض والسماء؟ وأي تناغم هذا بين شتى المدارات؟ وأي شذوذ هذا الذي يمارسه الإنسان، في تمزيق وحدة الوجهة نحو الخالق العظيم؟! فلِمَ لا يسجد داود لربه في هذا المركب المتسق التغريد والتجويد؟ «وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير»(7)، و«إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق»(8) «وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم»(9).. و«كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه!»(10)

فمن ذا قدير على الإخلال بروعة النظام إلا أعمى؟

* * *

ها أنت إذن تدخل خلوة الإيمان، مفارقا تيه الوحشة والضياع، ومستقبلا بوارق من مقام الأنس بذكر الله.. تلقي نظرة إلى الوراء، فيهولك ركام الرماد الذي خلفته حرائق الأيام الخوالي! ويملؤك شعور بالخجل والندم.. عجبا! كيف صنعت ما صنعت تحت سماء الله؟

كان النسيم الجميل الذي يهب من الجهة العلوية؛ يحمل معه رشاش مطر خفيف، فترتعش الأغصان منجذبة إلى شجونها، ثم يفيض الدمع الصامت؛ ليعمر القلب بطعم مقام الخوف والرجاء، عساه يورق ريشا فجري اللون؛ فيطير إلى مصاف الأجنحة السبعة.. فمن بينها: «رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه!» (11)

...هذه يقظة، ولكل يقظة غفوه، أو غفلة، فخذ بأسباب (الإرادة)؛ فإنها مقام الابتداء بلا انتهاء، إلا أن يشاء الله! ثم اصحب الكون السالك، فلأحواله أمارات الوصول إلى أعتاب الله «واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار!» (12) فشد ثيابك يا صاح إلى محاريب الجمال والجلال، وذق من كؤوس التعبد ما ترى به سبيل السلام، مستقيمة واضحة في عصر الظلمات والانجراف، واحذر أن ينحرف بصرك عن مشاهدة النور الفياض من النبع العظيم! «واصبر نفسَك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطا!» (13)

* * *

ها أنت تحس الساعة بالأغصان العارية في ذاتك، تنشر براعمها أوراقا خضراء، فيتشكل الجناح المأمول، حتى إنك لتكاد أن تطير! لولا ما يثقل ذاكرتك من أوساخ عناكب ماتت، لم يزل نسجها القديم يلتقط الغبار من هنا وهناك!

ألا مهلا يا صاحبي!.. فلا بد قبل التحليق من المسير. وإن أولى خطوات المسير أن تغطس في حوض التقرب، تحت شلال التوبة، وإنه لمغتسل بارد وشراب! فذلك مستشفى الأنبياء والأتقياء.. فتجرد إذن من ذاكرتك السوداء! وتبرأ مما قبل فجر الربيع! فمقام الفرحة كفيل بوضعك على أول مدارج التحليق، ذلك نور القسم النبوي المشع في فلوات الظلام: «والله! لَلّهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في الفلاة!» (14) ويسترسل سيدي في إضاءة علامات الطريق: «ومن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا! ومن تقرب

إلي ذراعا تقربت إليه باعا! وإذا أقبل علي يمشي أقبلت إليه أهرول!» (15) سبحان الله! وأي مشي يمكن للإنسان أن يمشيه إن لم يكن أساس خطواته الخضوع لسيد الكون؟ وأي خضوع يمكن أن يكون إن لم يكن في تسابيح الصلاة؟ وما جريمة هذا الخلق إن لم تكن في إضاعة هذا المعنى العظيم! الذي سكن روح الأمة منذ مئات السنين! «فَخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاةَ واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا!» (16)

فأي شيطان هذا الذي غلّق بوابات المساجد دون التوابين والمتطهرين؟ فانطلقت حوافر الفحشاء تركض في الأرض ركضا!

ألا هذا لجام التعبد يروض حافر المنكر، كي يركب مداره طوعا، فاخلع نعليك يا صاحبي! و«اتْلُ ما أوحي إليك من الكتاب، وأقم الصلاة! إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر!» (17)

حلية الـغـر المـحـجَّـلين

هذه النافورة الرخامية البيضاء، التي يؤمها الناس في فناء المسجد، بقلوب يملؤها الشوق إلى حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم، تعرض على المؤمنين حليا من النور البهي، فيتسابقون إلى تزيين وجوههم، وأيديهم إلى المرافق، ورؤوسهم، فأرجلهم إلى الكعبين. و«تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» (18). ذلك شرط المرور إلى عتبة الصلاة. إذ «لا تقبل صلاة بغير طهور» (19).

وتتقاطر أفواج المصلين على الماء؛ ليردُوا من بعد عطش شديد، مما أصابهم من دخان المال والأعمال.. وتمتد الأيدي خاشعة، ذاكرة، يدفعها الحنين إلى ارتداء أوسمة الإيمان، طهورا، ينقلهم مباشرة إلى مناجاة الرحمن. وإن «الطهور شطر الإيمان» (20) كلمة سر مودعة في كتاب الاستئذان من حديثك يا رسول الله!

وتدور الفصول من حر إلى قر، فيبقى الوضوء سرا من أسرار الجمال، الذي ينسخ نوره آثار معركة الحياة، من سهام إبليس ورشقاته.

كانت كلمات النبوة بلسما، يوضع على الجروح فتشفى بإذن الله! فها أنا ذا يا حبيبي أرتحل إليك مخترقا حدود الزمان والمكان؛ لعلي أصيب رذاذا مما أصاب الصحابة الكرام، فجنبات المعمور ما زالت تردد أصداء النور النبوي:

ـ «ألا أدلكم على ما يمحو به الله الخطايا، ويرفع به الدرجات؟

ـ قالوا: بلى يا رسول الله!

ـ قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. فذلكم الرباط، فذلكم الرباط!» (21).

والمكاره شتى في هذا الزمن الرهيب يا نبي الله! فهذا قر الشتاء أصبح اليوم خنقا، بتوقيت تعده عليَّ ساعات الدرهم والوظيفة! ووثنية تفرضها أغلال الحلاقة واللباس! و(...) وأشياء أخرى من تقيين النساء، أكرمك عن ذكرها يا حبيب الله! ما سلمت منها

عين، ولا خد، ولا يد، ولا رجل! فبأي حميء آسن امتلأت برك هذا العصر الغريب!

ألا هونا عليك يا صاح! فما في الدنيا وسخ، أو دَرَنٌ لا يغسله أريج الطهور! لكنما التحلي مقام ينبئ عن تمام التخلي! فهلم إذن، وات من أي الجهات أتيت، وبأي الأدواء ارتديت، فكل حفنة من الماء كفيلة بمسح بعض غبار الطريق!

أوَليس «إذا توضأ العبد المسلم، أو المؤمن، فغسل وجهه؛ خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه، مع آخر قطر الماء!

ـ فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه، مع آخر قطر الماء!

ـ فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه، مع آخر قطر الماء.. حتى يخرج نقيا من الذنوب!» (22)؟

ـ بلى يا رسول الله!

فما أبطأ بك إذن يا ولدي؟ هذي جموع المؤمنين سارعت إلى لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيوم القيامة، يردُون حوضه الكريم، بأوسمتهم النورانية:

كانت الخيل وهي مقبلة فأل خير، ترفع غررها البيضاء نحو سماء الانتصار، ولقوائمها المحَجَّلة ـ وهي تباري الأسنة راكضة ـ جمال، لا يضاهيه إلا جمالها وهي تقف هادئة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، تلقي التحية، وتسلم الغنيمة!

فلتسبغوا الوضوء على المكاره إذن سادتي الأتقياء، فإنكم «أنتم الغُرُّ المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء، فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله!» (23) تلك سيم الجمال في وجوهكم، وأطرافكم، يوم تَرِدُون على المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهي سيم «ليست لأحد من الأمم!» (24)، بها تعرفون في كثرة الخلائق يوم القيامة، كالدر المتناثر في دلجة الفضاء!.. هذه ومضة الإبراق النبوي تبشر برشح الأنوار على أطراف المتوضئين الساجدين، رشحا لا يذبل وميضه أبدا! فإذا النبي الكريم يميز المحبين وسط الزحام واحدا واحدا:

ـ «ما من أمتي من أحد إلا وأنا أعرفه يوم القيامة!

ـ قالوا: وكيف تعرفهم يا رسول الله في كثرة الخلائق؟

ـ قال: أرأيت لو دخلت صُبْرَةً [محجرا] فيها خيل دُهْمٌ، بُهْمٌ، وفيها فرس أغر محجل، أما كنت تعرفه منها؟

ـ قالوا: بلى.

ـ قال: فإن أمتي يومئذ غرٌّ من السجود، مُحَجَّلون من الوضوء! »(25)

هذه قصة الماء الطهور في جداول السلوك إلى الله. وفي الماء سقاء لدالية الشعور بالرضى الرباني، والقبول للمثول أمام جلال الله.. ألا ما أعمق الفرق في الغصن الواحد بين زمانين:

الأول سنوات عجاف، لا نضرة ولا نعيم، ولا صدى لصهيل، إلا قعقعة الحطب في ليالي الريح..!

والثاني عام فيه يغاث الناس، فتتسلق الدوالي أغصان البروق، ويحتفل المطر، فإذا الأشجار مورقة ريانة، وإذا صفوف المصلين تتراص عند فاتحة الزمان الجديد، والوجوه ما زالت ترشح بماء الطهور!

« والصلاة نور » (26)

كانت كلمات الإقامة إشعارا ثانيا ـ بعد الأذان ـ بضرورة نفض كل ما بقي من علائق التراب، قبل الإذن للأجنحة أن تقلع في طريقها إلى مقام المحبة:

ـ قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة!

وترتفع الأيدي المحجلة تجاه القبلة في تكبيرة الإحرام، لتفريغ البال من جميع الأحوال، إلا حال الفقر المرفوق بالشوق إلى الغني الحميد، ثم تتأدب بالتزام الصدر في وقفة العبد بين يدي الملك العظيم، تأسيا بجمال الامتثال في قيام النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كان في وقوفه بباب الله «يضع اليمنى على ظهر كفه اليسرى والرسغ والساعد» (27) و«كان يضعهما على الصدر» (28)، ثم تشرق التجليات!

والقِبلة جامعة لشتات القلب والبصر، وإنقاذ للعبد السالك من مقام الحيرة إلى حدائق الطمأنينة (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره)(29) وكيف لا يحتار هذا الفكر الجزئي البسيط، القابع في مدار كوكب ضئيل، يدب في بحر لجي من الكواكب والمجرات، وتيه من العوالم والمخلوقات، مما يستعصي حتى على مجرد التصور الشامل والاستحضار الكلي! فكيف إذن لا يحتار هذا الفكر المحدود المنحصر، وهو بصدد الاتصال، وعلى أعتاب المناجاة، مع رب هذه العوالم، المحيط بجميع هذه المخلوقات؟؟!

فلتكن القبلة إذن قنديلا آخر، في طريق التعبد يجمع المصلين في العالم أجمع، حول قلب واحد، ينبض بتوحيد الله ذي الجلال، ويبعث من مكة المكرمة أنوارا، تتلقاها أفئدة العابدين في كل مكان أن هلموا، هذا بيت الله الذي هو أول بيت وضع للناس، فتحج الأرواح من محاريبها خمس مرات في اليوم!

ألا ما أجمل سعف النخيل وهو يُلَمِّع خضرته الزاهية، بعد رذاذ مطر خفيف، وما أبهى جماله؛ إذ يستجيب لنسيم لطيف؛ فيميل موليا وجهه شطر المسجد الحرام!...

كل شيء يتلاشى الساعة خلفك، فلا فكر يقدر أن يتخلف لحظة عن مقام النور المتجلي لبصائر المخبتين الخشع، كانت المشكاة ترسل نورها الدري، وكانت القلوب تتوق إلى التعلق بأستار الكعبة، ثم تتجلى عظمة الله للخوافق؛ فترتعش الأجنحة خوفا ورجاء؛ ثم يأذن الإمام بتكبيرة الإحرام، معلنا بذلك قطيعة مع عالم الرغام والأوهام!

ـ الله أكبر!

كان سيف النور قد قطع الزمان نصفين: الأول إلى خلف فما زال راكضا في تغيره يذوب فناء، بذويان الأشكال والألوان المتهاوية تترى، في عالم الأوراق السافرة بين ربيع وخريف، ولا برعوم يورق مرتين! «كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» (30).

والثاني إلى أمام، ما يزال متوجها إلى مقام البقاء، فالنور المتجلي على الغرر البهية، مستمد من معين لا ينضب!! والعبادة لحظة تستمد خلودها من مناجاة الحي الذي لا يموت! فتفنى الذوات عند آجالها، وتبقى لحظات الصلاة حرما آمنا لا يناله أثر الزمان! ليرسم نعيما سرمديا بقناديل تستمد زيتها الوضاء من مشكاة الله.. ويُتَخَطَّفُ السعي العابث من حوله، فإذا هو محض سراب!

كان الوارد نورا يهمي من أعلى، فينفتح القلب بكلمات من نور آخر، فإذا اللحظة مناجاة بين الخالق والمخلوقات!

....

أنت الآن أمام جلال الله، تقدم إيمانك إخباتا بين يديه تعالى والقلب مفتوح الأبواب، فلا شيء به يبقى مستورا! وقد تنتابك أدخنة الطين رياء ونفاقا ،ما بين الذرة وأقل، فتفر إلى ربك مذعورا.. وتناجيه حزينا أن أبرئني يا سيد هذي الأوراد مني!

ـ أوَ لست تصلي؟.. و«إن أحدكم إذا صلى يناجي ربه!» (31)

عجبا! فأي قوة ما زالت تصمد في ساقيك، فتمتثل وقوفا أمام عظمة الواحد القهار.. والجبل قد اندك وراءك من خشية الله؟

ـ أن تصلي: يعني أنك تقابل ربك غصنا منفوض الأوراق! فأنت كما أنت، لا تخفى منك خفقة قلب واحدة؛ صَفَتْ أم خالط دمعتَها ريحُ الحمأ المسنون! و«إن أحدكم إذا كان في الصلاة، فإن الله قبل وجهه»(32) والله قبل ذلك وبعده «يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» (33) فكيف يمكن لهذا البصر أن يمتد قيد أنملة نحو السماء، والرب بجلاله قِبَلَه؟ إذن؛ تندك ضلوعه، فيخر القلب صعقا، ولا يبصر شيئا بعدها أبدا!!. كان

التحذير النبوي حريصا على أمر المحبين بالتزام آداب المحبة؛ حتى لا تستحيل حديقة النور إلى ظلام دامس. قال عليه الصلاة والسلام: «لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة؛ أو لا ترجع إليهم!» (34) وأما التفات عن يمين، أو شمال؛ فهو «اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد» (35) وأنى لعبد في مقام الخشوع؛ أن ينصرف عن مشاهدة الجمال بقلب ملؤه التقوى والورع؟ وأنى لعبد في مقام الخضوع، أن ينصرف عن تذوق كؤوس الترتيل، الطافحة بشهود الفلاح؟ كيف و«قد أفلح المومنون الذين هم في صلاتهم خاشعون»؟ (36)

* * *

يا لآيات البهاء! تنطلق كلماتها من ألسنة رطبة بذكر الله، مصطفة مثلما تَصُفُّ الملائكة عند ربها!

ـ «وكيف تَصُفُّ الملائكة عند ربها؟

ـ قال: يتمون الصفوف الأول، ويتراصون في الصف» (37)

ألا صلى الله عليك يا رسول الله! أصف في الأرض؛ وصف في السماء؟ والصلاة جامعة؟ هكذا إذن تخف الأجنحة المثقلة بأحزانها، وتنطلق الأسراب محلقة؛ لمزاحمة الملائكة في مدار النور، عند أعتاب ملك الكون الظاهر والباطن!

ألا ما أشقى ذلك الجمل الشارد في صحراء الظلمات! لا يفتأ يلهث راكضا خلف سراب مال متسخ، حتى يتسخ وبره، وتنتن رائحته، فيرين على قلبه ما يحجب رؤيته لجدول الصلاة الرقراق، وراء رمال العصيان، فيموت يلهث عطشا دون ظل المورد العذب. وما بين استحالة الموت ميلادا إلا أن يركع لمالك خزائن القطر، فإذا القفر حواليه حدائق ذات بهجة، ترشح غصونها بأنداء الطهور، نورا يصفيه من جميع الأدران!

كان البهاء يحيط الحبيب المصطفى، وهو في هالة صافية من أصحابه إذ قال:

ـ «أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات؛ هل يبقى من دَرَنِه شيء؟

ـ قالوا: لا يبقى من درنه شيء.

ـ قال: فكذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا» (38)

ويوقد الحبيب قنديلا آخر فيقول:

- «ما أدري أحدثكم بشيء أم أسكت؟»

- فقلنا: يا رسول الله إن كان خيرا فحدثنا؛ وإن كان غير ذلك؛ فالله ورسوله أعلم!

- قال: ما من مسلم يتطهر، فيتم الطهور الذي كتب الله عليه، فيصلي هذه الصلوات الخمس؛ إلا كانت كفارات لما بينها!» (39) وفي ومضة قنديل آخر: «وذلك الدهر كله!» (40)

.. هذا المسرى الربيعي إلى الله، رَغَبا في ينابيع الرحمة والمغفرة، تتعانق الصلوات فيه، أقواسا من الدوالي المورقة، حيث تتشكل العناقيد قناديل خضراء، ترسم خطوات النور الهادي إلى الرحمن، فتختزل العدد والزمان، إذ بكل خطوة عشر خطوات في طريق الله، فقد فرض الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ـ في السماء السابعة، وبغير واسطة الملاك جبريل عليه السلام ـ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، ثم خففها سبحانه، اختزالا في خمس، ثم قال في الحديث القدسي: «يا محمد! إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة!» (41)

أي فريضة هذه التي هي فضل كلها؟ ورحمة كلها، ونور كلها، وجمال كلها؟.. وإن عبادة فرضت في السماء، بغير واسطة الملاك؛ لحرية بالارتقاء صعدا بعشاقها إلى مقامات السماء!

فاصطبري يا أبدان على إدامة التطهر بنهر النور! فإن غصنا ينبت في جوار الغدير لا يجف أبدا! إن لم ينل من فيضه؛ نال من نسيمه ونداه! والأمل يسري نضرة وجمالا في قده المياد ركوعا!

ولإبليس كَرّات في الفترات، يزيدها خرقا واتساعا، فلا (الإرادة)، ولا (التوبة العابرة)؛ يكفي مقامهما لاقتحام المفازات بهذا الغصن الندي، حتى يصل إلى (مقام المحبة)، وهو ما يزال يحتفظ بطراوته ونداه، وللطريق مكاره لا يطفئ لهيبَها الشيطاني إلا أمطار الصبر! ذلك مقام أولي العزم من الرسل والصالحين!

فانثر يا صاح فؤادك غيثا من مزن الصبر، تنبت فتراتك جنات ذات أنس وظلال، فتزيدك حبا وخشوعا: «واستعينوا بالصبر والصلاة؛ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين!» (42) ثم وسع دائرة النور حواليك؛ حتى تضمن ابتعاد الظلام: «وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها» (43) فالاصطبار رشحٌ من أنداء شجرة الفقر الدائم إلى الله. ترفع أفنانها دوما

إلى السماء، ترجو نوالا من فيض الرحمن الواسع الكريم. فذلك مغتسل الأوابين: «واذكر عبدنا أيوب؛ إذ نادى ربَّه أني مسنيَ الشيطان بنُصْب وعذاب! اركض برجلك! هذا مغتسل بارد وشراب!» (44)

.. كؤوس الرحمة، ونور التأييد، وفواكه الرضى، وجلابيب القبول، ومقامات النصر، كلها.. كلها من ظلال الاصطبار على مدافعة مكاره الشيطان. فما فتئ أيوب عليه السلام يفتتح أقواس الصلاة، صابرا، أوابا: «إنا وجدناه صابرا، نعم العبد إنه أواب!» (45).

هوامش الفصل الأول

(1) رواه مسلم
(2) رواه أحمد والنسائي وصححه الألباني في (ص.ج.ص) رقم: 1841
(3) رواه الطيالسي وأبو يعلى وصححه الألباني: (ص.ج.ص): 818
(4) متفق عليه.
(5) الرعد: 13.
(6) الحج: 18.
(7) الأنبياء: 79.
(8) ص: 18.
(9) الإسراء: 44.
(10) النور: 41.
(11) متفق عليه.
(12) غافر: 55.
(13) الكهف: 28.
(14) رواه مسلم.
(15) رواه مسلم.
(16) مريم: 59.
(17) العنكبوت: 45.
(18) رواه مسلم.
(19) رواه مسلم.

(20) رواه مسلم.
(21) رواه مسلم.
(22) رواه مسلم.
(23) متفق عليه.
(24) متفق عليه.
(25) رواه أحمد بسند صحيح. (صفة): 158.
(26) رواه مسلم.
(27) رواه أبو داود والنسائي وابن خزيمة بسند صحيح: (صفة): 79
(28) رواه أبو داود وابن خزيمة في صحيحه: (صفة): 79
(29) البقرة: 144.
(30) الرحمن: 26.
(31) رواه البخاري.
(32) رواه البخاري.
(33) غافر: 19.
(34) متفق عليه.
(35) رواه البخاري.
(36) المؤمنون: 2
(37) رواه مسلم.
(38) متفق عليه.
(39) متفق عليه.
(40) رواه مسلم.
(41) رواه مسلم.
(42) البقرة: 45.
(43) طه: 132.
(44) ص: 40 ـ 41.
(45) ص: 43.

الفصل الثاني :

* هذا لعبدي؛ ولعبدي ما سأل

* في مملكة الله..

هذا لعبدي، ولعبدي ماسأل

... وفاتحة القرآن إبحار في مقام التجريد والتفريد! تضع عنك أشكال البهتان، وألوان الكذب، وتذوب أغلفة الأوهام، والأماني المستحيلة، في نظرة الحق إلى ذاتك. أنت الآن واقف تستفتح سفارك، تقدح تغريد الصلاة. أنت الآن كما أنت! أنت الآن أفقر ما تكون، وأطهر ما تكون، فقد نفضت يدك من كل الأثقال التي حملتها؛ مالا وولدا، ومنصبا ولقبا. فإنما الملك لله الواحد القهار، يا أيها الطيف العابر في مدار عابر!

وتحس بنعمة اليقظة، بين يدي عظمة الله سبحانه، وأعظم بها من نعمة! إذ كيف لذرة غابرة في ضخامة الكون الممتد في المجهول، وسعته الرهيبة؛ أن تحظى بالقرب ممن وسعت قدرته وعظمته سعة الكون وضخامته؛ خلقا وتقديرا، وعلما وتدبيرا؟ لولا أن رحمته وسعت ما وسعت قدرتُه وعظمته تعالى؛ وهو بكل شيء محيط! «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب؛ أجيب دعوة الداعي إذا دعان؛ فليستجيبوا لي وليومنوا بيَ لعلهم يرشدون!» (1)

ليس لهذه النفس المطمئنة الساعة إلا أن ترسل عبَرات الفرح بالله، فتمد أغصانها المورقة حمدا، وثناء، وتمجيدا، وتفويضا، مستزيدة بذلك من كرم الله ونعمه:

- «الحمد لله رب العالمين!»: إعلام بشعور النفس الواقفة بمحراب الصلاة - على عتبة الرحمن - بأن كمال الحمد إنما هو لسيد هذه العوالم جميعا، تجريدا لسواه تعالى عن كل ملكية، لأي نعمة أو منحة أو عطاء؛ وتفريدا له - وهو سيد المخلوقات في العالمين - بوحدانية الألوهية والربوبية، وما تقتضيه من كرم فياض «قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي؛ إذاً لأمسكتم خشية الانفاق. وكان الانسان قتورا!» (2) فمن ذا يستحق الحمد من دونه تعالى؟

ألا الحمد كل الحمد لله رب العالمين!

كانت الكلمات - وهي من الله نزلت - تفيض من قلب العبد ريانة بشعوره الغيداق، المشوق برضى سيده الكريم! ويلقاها سبحانه بالقبول؛ فتنفتح سرورا بين ضلوع العبد، وهو يشعر بجواب سيده: أندى، وأكرم، وألطف، وأحلم.. هذا مقام المناجاة: تقف فيه الذات المستجيرة بجوار الله، فيجيبها بإلقاء نور السلام، على خفقان غصنها، المضطرب بين خوف ورجاء، فإذا الطمأنينة تنفتح أمامها سهول إخبات فسيحة، ينال العبد فيها ما يشاء!

كان الشعاع الأخضر القادم من المقام النبوي؛ يلقي إلى النفس تفاصيل مناجاة النور:

- «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل:
- فإذا قال العبد: «الحمد لله رب العالمين»،
- قال الله تعالى: حمدني عبدي!
- وإذا قال: «الرحمن الرحيم»

قال الله تعالى: أثنى علي عبدي!

- وإذا قال : «مالك يوم الدين»،
- قال الله تعالى: مجدني عبدي!
- فإذا قال: «إياك نعبد وإياك نستعين!»
- قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل!
- فإذا قال: «اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين!»
- قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل!» (3)

فأي كرم هذا، وأي نعماء؟

سورة الفاتحة في غير الصلاة، تفتح للقارئ نافذة علم، إذ تلخص قصة الإسلام كلها، عقيدة وشريعة، والمفسر يكتسب بها مقام علم رفيع. وأما الفاتحة داخل محراب الصلاة، فهي تفتح للعابد أقواسا من نور، لمشاهدة جمال العلم بالإسلام، من داخل قباب التعبد، فالعبد يقرأ بين يدي سيده مناجيا، وشهود الحي القيوم حي بقلبه!!

أنت إذن تقرأ؛ فترحل متجردا من أثقال الطين، إلى ذوق لذة التعبد في حضرة المعبود، فتحس بأن الحال غير الحال، وأن وهج النور أقوى من أن يبصره بصر، فتمد قدح القلب؛ لتنال من رحمة الله مرتلا:

«الرحمن الرحيم» فتكاد تعطف هذا الغصن، المتجرد في حضرة سيده، لولا أن المقام لما يحن بعد! فيزداد شوقك إلى موضع سجودك، وترمقه بعينين خاشعتين، وكان الحبيب صلى الله عليه وسلم «إذا صلى طأطأ رأسه، ورمى ببصره نحو الأرض» (4)

وما زال نور الحمد يسري في الفؤاد شوقا ومحبة، فتحمده تعالى؛ تعظيما لألوهيته وربوبيته، وثناء على رحمته... رشفة أخرى من نور السورة؛ كافية بأن تفتح قلبك للنظر إلى عدل الله، المنبثق من رحمته، فتتوجه إليه سبحانه؛ تمجيدا لملكه، وتفويضا كل أثقالك إلى حكمه، ثم تسري السورة في أشواقك موجة أخرى: «مالك يوم الدين»! فترتفع حالك أنسا، وترتقي محبة في مقام المعرفة بالله! أوَ ليس ذلك يوم الدين؟ اليوم الحق الذي تتبخر عند حافته أزمنة الغرور والأوهام؟

فما مُلْكُ ملوك الأحلام، إذا استيقظوا على حقيقة اليوم الحق، وهم ماثلون أمام الملك الحق؟ تلك صورة يتذوقها العبد، وهو يرشف ـ في صلاته ـ من فاتحة الكتاب، فيحس برهبة ذلك اليوم، الذي يعتلي فيه الرحمن عرش القضاء بين عباده، فتنبت مشاعر الحاجة الملحة إلى الاستزادة من رحمته تعالى؛ رهبا ورغبا؛ اتقاء لحرج يوم الحساب، الذي لا تغادر فيه صغيرة، ولا كبيرة؛ إلا أن يعفو الله! ويشعر المؤمن بضرورة العودة إلى ذاته لتمحيصها، وأول ما يمحصه؛ هذا الذي هو فيه الآن: صلاته القائمة! فليمعن في تجريد أعماقه من دسائس إبليس، مهما دقت؛ تفريدا لوجه الله؛ المقصود وحده بالتعبد والاستعانة، فتفيض الحروف من قرار وجل حزين؛ ألا يكون المقال على وقع الفعال! وترسل الحنجرة تغريدها: «إياك نعبد وإياك نستعين!»

ويقول مولاك: «هذا بيني وبين عبدي!» (5)

آه منك يا نفس! أي حق عليك لله عز وجل! وأي تبعة عليك! وأنت شاردة في متاهات اللهو، تبنين قصور الوهم في دار الخراب!

ـ «إياك نعبد وإياك نستعين» ذلك بينك وبين العليم الخبير! فهو بعلمه سبحانه سيتولى تمحيص آثار ذلك في القلوب والجوارح!.. فيا أيتها الأغصان العابثة بين ربيع

وخريف، تبيحين نَداك لكل ريح؛ هذه الشمس تكاد تأتي على امتصاص كل أنداء الحياة! فإذا نضارة العود الطافح أوراقا وأزهارا؛ تستحيل حطبا، يتحطم وهْنا على أعتاب الآخرة! فأين أنت من «إياك نعبد وإياك نستعين»؟

كان الحزن الصاعد من الأعماق يتشكل في أفق المحراب بارقة مضطربة، بين جناحي قلب السالك، خفقا يحدوه مقام الخوف والرجاء، فترتفع الأشواق إلى بارئها؛ مستغيثة وملبية، تلهج بمعاني الحمد والثناء، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.. وتنفلق الظلمات بومضة برق صارمة، فيشتعل الخوف بغصونك اشتعالا، يكاد يحرق ما بقي بأندائها من رجاء! فتتعلق بأعمدة النور العلوي، و... وتبكي.. مناديا «ألاّ إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين!» (6)

.... وتنهمر الأمطار!

ها هو الشاطئ أجمل ما يكون! وها هو ذا أنت أسقم ما تكون! وتمد يدك إلى شجر اليقطين، تمسح جروحك وتستر ضعفك. ثم تتقدم هونا في الطريق، وقد أورق رجاؤك ألطافا من رَوْح الله، واشتد عطشك إلى نور الهداية، المسدد لخطواتك إلى الله؛ فجد الرجاء، وناجيت مولاك خاشعا، راسما مبتغاك، وأنت ذرة تشق طريقها، في قصة تاريخ الإنسان مع الأديان:

ـ «اهدنا الصراط المستقيم: صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين!» آمين!

فالهداية إذن هي النور العاصم من الشرود في التيه؛ الضارب بعيدا عن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين». فأهل العبادة والاستعانة بالله عليها، هم المنعم عليهم دون سواهم. وهم الذين عرفوا الحق فالتزموه، وتلك أم النعم! وذاك هو الصراط المستقيم، الذي زاغ عنه من عرف الحق وعمل بخلافه؛ فغضب الله عليه! ومن جهل الحق ولم يهتد إليه؛ فضل ضلالا بعيدا!

• • •

كانت الفاتحة نقلة روحية كبرى، ارتقت بك من مقام إلى مقام، مما يلي أبواب عالم الدَّخَن والفناء، إلى ما يلي أبواب عالم الصفاء والبقاء!

وتحس بجمال اللحظة، وأنت تجد فيها من معاني الخلود ما تجد، ويقوى رجاؤك في الله؛ أن يصفي دمعك من رائحة الطين! أتدري ما صفاء الدمع من رائحة الطين؟ ذلك حين تشف هذه الضلوع الصلبة عن يقين الوجدان الفوار بقلبك! ويترقرق الغدير في بطحاء الحب، فترى لآلئه الجميلة صافية الأديم، لا تضام في رؤيتها شيئا! حين ذاك يصدق في حقك الوعد: «هذا لعبدي.. ولعبدي ما سأل!» (7)

ألا ما أعظمه من دعاء! وما أكرمه من عطاء!..

كانت نهاية السورة تتفتح شعورا قويا في القلب، بالإلحاح في الدعاء، فتفيض أنوار الهداية النبوية، بخاتمة من أمل أخضر يمتد صداه امتداد النفَس الولهان، فإذا (التأمين) قنديل آخر، يجمع خفقات المحبين في السماء والأرض!

ألا تنظر إلى حلقة النور وهي تشكل هالة إصغاء، والحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، يوقد ألوان القناديل؟

- «إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا! فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه!» (8)

سادتي!.. صلوا على محمد!

• • •

في مملكة الله

كان القرآن؛ فكانت الصلاة.. وكانت سورة الفاتحة هي الصلاة! (9) و«لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب!» (10) و«ما أنزل الله عز وجل في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن!» (11) لكن مقام الوقت يدعوك الساعة يا ولدي؛ للدخول إلى مملكة الله، عبر قراءة ما تيسر من القرآن، بُعَيْد التأمين على دعاء فاتحة الكتاب.

فيا أيها الجناح الضارب في سفارك إلى الحبيب، تجتاز آفاق الآكام والوديان، هذا مقام الأنس؛ فافتح تباريح المحبة عند فاتحة الكتاب! تنقلك خفقة نور إلى بحار الله! وما أدراك ما بحار الله؟ إنها الجمال ذو الجلال المطلق، أو قل هي الجلال ذو الجمال المطلق!.. المشع - سرمدا - من كلمات الله، بل «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي؛ لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي! ولو جئنا بمثله مَدَداً» (12) «ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر؛ ما نفدت كلمات الله! إن الله عزيز حكيم» (13). فتَملَّ جمال النور العظيم!إذ يرسم الحرف القرآني في النفس؛ شعاعا لا يصطدم بساحل! فترى أن العمر، كل العمر، لا يكفيك، ولا لتذوق كأس واحدة من بحر عطاء الله العذب، الصافي!

..كانت أصداء التأمين ما تزال تتجاوب مع أصداء السماء.. وكان فؤادك ما يزال يخفق إجلالا لجمال الله.. هذا مقام الغنى العالي؛ فآيات الفاتحة السبع؛ كانت كافية لمحو كل آثار الطين من ذاكرتك، ثم لعمران القلب بحب الله؛ فلكؤوس السبع المثاني طفح؛ يملأ الجوانح؛ شوقا إلى عبور مقام الإذن؛ للتملي في ملكوت الله، فيا صاح افتح حدائق القرآن العظيم؛ تنل مزيدا من عطاء الله!«ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم، لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم» (14) فكل متع السراب سراب!

ألا ما أفقرك أيتها العير المحملة بالمال، تسعين ذلولا في ركب السلطان لبناء المجد الفان! فاستزد يا صاح غنى من روح الله! تشتعل الآيات في دربك قناديل مزهرة أبدا، حتى تلقى مولاك!«فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين!» (15)

بين الفاتحة وبين قراءة ما يتيسر من الآيات؛ قياما بين يدي الله، برزخ شوق ينتفض، رغبة في الارتقاء إلى مقام الجوار! أوَليس «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق! ورتل، كما كنت ترتل في الدنيا! فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها!»؟(16) رتل إذن؛ لا هَذّاً ولا عجلة، بل قراءة «مفسرة حرفا حرفا» (17)؛ كي تتذوق رشفات النور، وتستطيع تلبية عزائم الانطلاق في بحار المحبة، فإن الخطب جليل وثقيل، فانشر شراع التملي «ورتل القرآن ترتيلا، إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا!» (18):

كانت أقواس النور تمر بين يديك هادئة وضاءة، فتلج منها إلى عوالم متعددة؛ مختزلا بذلك أمكنة وأزمنة شتى، وناظرا بقلب تملؤه الرهبة إلى اللامكان واللازمان، متعلقا بأنوار الأسماء الحسنى، فيزداد حسن الترتيل، وجمال الخشوع بحدائقك، حسنا وجمالا. فاخشعي يا حناجر الطير الشجية، الماثلة عند أبواب الكمال! «إن من أحسن الناس صوتا بالقرآن: الذي إذا سمعتموه يقرأ؛ حسبتموه يخشى الله!» (19).

هذه قناديل القرآن الأولى، تسكب بين ضلوعك لطائف العلم فتزداد معرفة بالله؛ لتحقيق مقام التوحيد، ربوبية وألوهية. أما الربوبية فتنشر عليك ظلال الخضوع التام لسيد الكون، فتتملى جمال الخالق في أسمائه وصفاته، ويتجلى لك نور الهدى، في تنزيه مولاك تنزيها يقوم على إثبات صفات الكمال، ونفي التشبيه والمثال! وأما الألوهية فتدعوك إلى تخليص مشاعرك ـ وأنت تخطو في درب التعبد بالأقوال والأفعال ـ من كل قصد سوى الله!

....

ويستمر الترتيل؛ فتستمر الأنوار الطافحة تنير جوانحك بمعرفة الله، وتذوق وحدانية الخلق والصنعة، في ربوبيته تعالى. وتكثر أنوار القناديل بين يديك، حتى يمتلئ بصرك يقينا في الله! فيا سالك «قل الحمد لله! وسلام على عباده الذي اصطفى! آلله خير أم ما تشركون؟ أم من خلق السماوات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماء، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها. أإله مع الله؟ أم من جعل الأرض قرارا، وجعل خلالها أنهارا، وجعل لها رواسيَ، وجعل بين البحرين حاجزا. أإله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون. أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، ويجعلكم خلفاء الأرض؟ أإله مع الله؟ قليلا ما تذكّرون! أم من يهديكم في ظلمات البر

والبحر، ومن يرسل الرياح نُشُرا بين يدي رحمته؟ أإله مع الله؟ تعالى الله عما يشركون! أم من يبدأ الخلق ثم يعيده، ومن يرزقكم من السماء والأرض؟ أإله مع الله؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين!

قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيبَ إلا الله! وما يشعرون أيان يبعثون!» (20)

ها هي ذي أنوار العلم قد ملأت قلبك بمعرفة الله، فتأهبت أجنحتك لتطير من مدار توحيد الربوبية ـ في سفارك ـ شوقا إلى تمحيص مقاصدك، التي مدت أغصانها إلى الله رغبة ورهبة. فانفتح عليك توحيد الألوهية شلالا من نور، لتطهير أزهار التعبد النابتة في القلب، من روائح الصلصال المسنون!

فسبحانك سيدي لا معبود بحق سواك! سبحانك أنت المعطي وأنت المانع، سبحانك أنت الضار وأنت النافع!

كانت معاني توحيد الألوهية في القرآن، تنشر ظلال النور على القلب المتبتل؛ فتصفو مقاصده، الضاربة في أعماق الجداول اللاهجة بذكر الله: «فأقم وجهك للدين حنيفا، فِطْرَةَ الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. منيبين إليه، واتقوه، وأقيموا الصلاة، ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، كل حزب بما لديهم فرحون. وإذا مس الناسَ ضُرٌّ دعوا ربهم منيبين إليه، ثم إذا أذاقهم منه رحمة؛ إذا فريق منهم بربهم يشركون، ليكفروا بما آتيناهم. فتمتعوا..فسوف تعلمون!» (21)

ذلك بهاء التوحيد، ضياء يشرق من فضاءات القرآن، على جمال التشريع الكوني، وجمال التشريع التكليفي، فيبرز التناسق والتوافق بين مدارات الأفلاك، والأشياء، والفصول من جهة؛ ومدار الإنسان المسلم من جهة أخرى.. فيبهرك كمال الصنع، وجمال التدبير، وجلال المقصد والمصير!

* * *

وتنفتح أقواس النور ـ بعد التوحيد ـ في القرآن تترى، فتلج منها إلى عوالم أخرى، محتفظا بأذواق المقام الأول في قلبك. وتمر عبر شلالات أخرى؛ استشفاء مما بقي من أسئلة مقام الحيرة: من أين؟ وإلى أين؟ وكيف؟ ولماذا؟.. واستشفاء مما بقي من وخزات الشيطان، والنفس الأمارة: «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين.

ولا يزيد الظالمين إلا خسارا! » (22).. فترى الموت والحياة في الأرض يتعاقبان، كما تتعاقب الظلمة والنور.. وتدور فصول الحياة بين ربيع وخريف، بدءا بقصة الخلق، وقصة آدم عليه السلام مع إبليس اللعين، مرورا بدعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام.. فترى أمواج البشرية بين إقبال وإدبار، وبين إيمان وصدود.. جيل ينسخ جيلا، والناس في غفلة رهيبة عن سنة الحياة الصارمة!.. أشجار تورق ثم تزهر، ثم... ثم تمسي هشيما في ليالي الأشباح، فسل الرياح كم رمت في البطاح!

كانت قصور شامخات وتكون، وكانت جبابرة ومستضعفون، يسقط فرعونٌ ويقوم آخرون، ولرياح الخريف دورة لا يتخلف موعدها أبدا! فإذا الحدائق أزهرت شهواتها، وطفحت نزواتها، «حتى إذا أخذت الأرضُ زخرفَها وازَّيَّنَتْ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها؛ أتاها أمرنا ليلا أو نهارا؛ فجعلناها حصيدا كأنْ لم تَغْنَ بالأمس! كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون» (23) وَيْ..! كأنْ لم تَغْنَ بالأمس!.. كأنْ لم تَغْنَ بالأمس!

وتمر دعوات الأنبياء، ومضات بارقة في ظلمات التاريخ، فتورق شجيرات في ظلال النور ويأبى فريق من الناس إلا نفورا!.. وتمضي الرغبة العمياء لاهثة وراء الجاه والسلطان، وإنما هو ركض في مملكة الله الواحد القهار!.. عجبا! كيف ينازع ملكٌ يموت الملكَ الحيَّ الذي لا يموت؟!

....

وتبقى المملكة لسيدها ابتلاء وذكرى لكل اللاحقين: «كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونَعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك، وأورثناها قوما آخرين، فما بكت عليهم السماء والأرض، وما كانوا مُنْظَرين!» (24)

ثم تمضي بك أقواس الدعوات النبوية إلى عالم اليوم الآخر.. فينبعث فيك الإحساس بالهول الكبير، إزاء يوم القيامة، وتنقدح الحركة الكبرى في يقينك، موعدا عاما للقاء الله في يوم الفصل.. فإذا الأرض تحت قدميك تُرَجُّ رجا! وإذا الجبال تهب في الفضاء الواسع ريحا وغبارا! وإذا السماء تطوى طيا! بأفلاكها وكواكبها؛ تهييئا لخلق كوني جديد!.. لست أدري هل عقلت شيئا مما قرأت أم لا؟!.. انظر إلى الجبال تهترئ صخورها، فينسفها الله نسفا!.. فترى الأرض قاعا فارغا ممتدا، لا ترى فيه عوجا ولا أمتا!.. ومد عينيك إلى الأفق وتملَّ ذرات الغبار الراحل إلى الله.. فقبل قليل، بل قبل

أقل من ومضة برق، أو قبل أقل من لمحة عين؛ كان جبالا راسيات، ترسخت متانتها أوتادا عبر أزمنة جيولوجية شتى!.. شيء رهيب، لا ينوب عن تصوير رهبته إلا أن تراه حقا!! تكوين جديد يفصل بين عالمين، أو قل بين نفختين! «ونُفخ في الصور فَصَعِقَ من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم نُفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون!» (25) وترى بعينيك أهوال القيامة، صَعْقا ونشورا، فيزداد مقام الخوف والرجاء بذاتك توهجا، وتتذلل بين يدي سيدك مرتلا آياته عبر شلال دمع، متبتل، منيب: «يا أيها الناس اتقوا ربكم، إن زلزلة الساعة شيء عظيم! يوم ترونها تَذْهَلُ كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكنَّ عذاب الله شديد!» (26) فيتجلى ربك للقضاء بين خلقه، وما أدراك ما تجلي الرب للقضاء بين خلقه؟: أين الملوك والجبابرة؟ وأين المردة والشياطين؟ وأين الأنبياء والأتقياء؟ وأين قوافل المستضعفين؟ ثم أين أنت بين ذلك كله؟

كانت الأنفس بارزة لا يخفى على الله منها شيء، وكانت الأبصار خاشعة«إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع!» (27) وتحل اللحظة الفاصلة بين الحق والباطل، بجلالها وجمالها، وينتظم الناس ليعرضوا على ربهم صفا، ويقوم جبريل عليه السلام والملائكة أيضا صفا.. و...

«وأشرقت الأرض بنور ربها، وَوُضِعَ الكتاب، وجيء بالنبيئين والشهداء، وقضي بينهم بالحق، وهم لا يظلمون» (28) فيتشكل الناس بعد ذلك فريقين، كل فريق يمضي إلى عكس جهة الآخر، أفواجا، أفواجا، فيفترق بافتراقهما (مقام الخوف والرجاء)! «وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا» (29) «وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا» (30)

كانت الصور تمر حية بمقامك، وأنت راحل عنك إلى حيث مشاهدها.. وكانت الجوانح يطفح لهيبها ببكاء عميق، خوفا أن يزيغ البصر عن محراب القانتين، فيرجك سؤال الملك الجبار:

- «لمن الملك اليوم؟» (31) وتمضي مع الترتيل الجميل مُسَلِّما:
- «لله الواحد القهار!» (32)

* * *

أي شيطان هذا الذي صرف الطير عن التغريد في البكور؟ من ذا الذي أخرس الترتيل في حناجر؛ ما فطرت إلا على ذكر خالقها، فأغواها بالتمرد الأخرق، ثم مضت تنعق في ظلمات الفجور؟

من ذا الذي أطفأ هذا القنديل الجميل، في عيون ما أبصرت إلا لتتملى الصفاء في محاريب النور ؟

معان شتى من الأسى والأسف، تخفق في قلبك.. وأنت في وهج صلاتك، تتذوق جمال القرآن، وروعة التعبد! فتصغي: «ويومَ يَعَضُّ الظالم على يديه، يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا! يا ويلتى! ليتني لم أتّخذ فلانا خليلا! لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، وكان الشيطان للانسان خذولا! وقال الرسول: يا ربِّ إنّ قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا!»(33) أوَ يُهْجَرُ يا صاح وهو الذي لو أُنْزِل « على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله» (34) ؟

كانت الرهبة قد هدَّت أغصانك، وكان الرجاء يمسح عليها بأنداء الدعاء المزهر في ألَق القرآن.. فتحيى لطائف سورة الفاتحة في قلبك من جديد، ذكرى طيبة، ثم تسري بعروقك راحة تامة، وسعادة عميقة، مما نالك من رحمة الله وفضله: «هذا لعبدي.. ولعبدي ما سأل»! (35).

* * *

هوامش الفصل الثاني

(1) البقرة: 186

(2) الإسراء: ١٠٠

(3) رواه مسلم.

(4) رواه البيهقي والحاكم صحّحه، قال الألباني: «وهو كما قال»: (صفة): ٨٠

(5) تقدم تخريجه.

(6) الأنبياء: ٨٦

(7) تقدم تخريجه.

(8) متّفق عليه

(9) تأمل الحديث المذكور «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي...»

(10) متّفق عليه، واللفظ للبخاري.

(11) رواه النّسائي، والحاكم، وصحّحه، ووافقه الذهبيّ: (صفة): ٩٢

(12) الكهف: ١٠٤

(13) لقمان: ٢٦

(14) الحجر: ٨٧ ـ ٨٨

(15) الحجر: ٩٨ ـ ٩٩

(16) رواه أبو داود، والتّرمذي، وصحّحه: (صفة): ١٢٦

(17) رواه ابن المبارك في الزهد، وأبو داود، وأحمد بسند صحيح: (صفة): 125

(18) المزمل: 3ـ4

(19) رواه ابن المبارك في الزهد، والدارمي، وابن نصر، والطبراني وأبو نعيم في (أخبار أصبهان)، والضياء في (المختارة)، وقال الألباني: حديث صحيح: (صفة): 127

(20) النمل: 61ـ67

(21) الروم 29ـ33

(22) الإسراء: 82

(23) يونس: 24

(24) الدخان: 24ـ28

(25) الزمر: 65

(26) الحج: 2
(27) غافر: 17ـ 18
(28) الزمر: 66
(29) الزمر: 68
(30) الزمر: 70
(31) غافر: 15
(32) غافر: 15
(33) الفرقان: 27 ـ 30
(34) الحشر: 21
(35) تقدم.

الفصل الثالث:

* "وخر راكعا وأناب"
* إلى مقام الحمد والثناء
* "واسجد واقترب!"
* جلسة بين يدي الملك
* في موكب العابدين
* وهب عبير التحيات!

"... وخر راكعا وأناب " (1)

كانت أمواج النور القرآنية، تمضي بسفينتك تجاه ساحل الوارد الفياض، حيث توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وصفاته؛ يملأ القلب تنزيها لذاته، فيشتعل الشوق بأشرعتك الخفاقة في الآفاق صعدا إلى مقام التعظيم!

عودك الساعة يكاد يذوب فناء، من وهج عوالم النور، كلما ولجت قوسا رأيت في عالمه من صنع الله وتدبيره؛ ما يزرع جناحيك فرقا من أيام الله!.. ويتسع الإحساس بعظمة الملك في قلبك ـ وأنت تجول في مملكته ـ حتى يملأ عليك جميع كيانك! فأي قلب هذا الذي لا يتصدع من خشية الله، ولا يذوب صخره تحت سلطان عظمته؟ «وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله!» (2). ثم تستبد بك رغبة قوية ـ أنت أيضا ـ في الهبوط من خشية الله! وتقوى رياح الشوق على غصنك.. فينحني راكعا لله!

ـ الله أكبر!

تكبيرة فاضت من أعماق القلب؛ تنزيها لله عن كل متأله جبار! ممن ينازعونه عزه تعالى، وكبرياءه! فتتهاوى عروش الغرور، في قصد شهود كمال المجد والعظمة، المشع من عرش الملك الأحد الصمد، «الله لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم» (3) فهو سبحانه ملك الدنيا، وملك الآخرة، مدبر عالم الغيب وعالم الشهادة، أوليس «هو الذي خلق السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور!»؟(4) بلى والذي نفسي بيده!

وتشع الأنوار هالة حول عرشه العظيم، تخفق أجنحتها طائعة متبتلة، تسبح بحمد الملك الوهاب «وترى الملائكة حافّينَ من حول العرش يسبحون بحمد ربهم» (5) فيفيض الإجلال، والتعظيم والتنزيه عبر خفقات قلبك، وهو يتملى جبروت مولاه ورحمته، وعلوه، وعلمه، وقد أحاط ملكه بكل شيء تدبيرا وتقديرا.. «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء! وسع كرسيه السماوات والأرض ولا

يؤوده حفظهما ، وهو العلي العظيم» (6).. فركوعا إذن؛ لعظمة الله! وترديدا لإرشاد إمام الأمة في أدبها مع الله: «فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل» (7)

وتتوالى التسبيحات للملك العظيم تترى:

ـ «سبحان ربي العظيم» (8)

ـ «سبوح قدوس ، رب الملائكة والروح» (9)

ـ «اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، وعليك توكلت، أنت ربي! خشع سمعي، وبصري، ودمي، ولحمي، وعظمي، وعصبي، لله رب العالمين» (10)

... وتكثر القناديل حتى يفيض النور من الفؤاد!

وفي الركوع سفار الغصن المنحني ، في مقام تقويم النفس ورياضتها. قال دليل السالكين إلى الله: «إذا ركعت فضع راحتيك على ركبتيك، ثم فرج بين أصابعك، ثم امكث حتى يأخذ كل عضو مأخذه!» (11) ويتذلل الغصن بين يدي خالقه«حتى تطمئن مفاصله وتسترخي» (12) فتورق أحوال الصفاء في عبارات التسبيح والتعظيم. كذلك كان دليل السالكين ومعلمهم عليه أفضل الصلاة والتسليم«إذا ركع بسط ظهره وسواه» (13) «حتى لو صب عليه الماء لاستقر!» (14)

كانت الأنفاس تتجول في مملكة الله مأذونة، وهي منحنية إجلالا لسيدها ، وكلما طال انحناؤها؛ ازداد ارتقاؤها في مقامات النور. ويتوالى التسبيح بحمد الرب العظيم، صعدا إلى ذي العرش المجيد، حتى تحس بنسيم فصل جديد، ربيعي الأريج، يفتح أقواسه الخضراء بين يديك، فإذا دقات قلبك أهدأ ما تكون، وألطف ما تكون.. كان مقام الأنس يرشح عليك بأنداء مغفرة جديدة، وفوز جديد، ويحليك ببهجة الرضى، وجمال المآب.. «فاستغفر ربه، وخر راكعا وأناب؛ فغفرنا له! وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب!» (15).

ويمضي العبد في تذوق مزيد من رشفات التسبيح، خاضع الفكر والوجدان، في تملي عظمة الله، وما يشع منها من بهاء الكمال في أسمائه الحسنى؛ ملِكا، قدوسا، سلاما، مؤمنا، مهيمنا، عزيزا، جبارا، متكبرا، خالقا، بارئا، مصورا، عزيزا، حكيما، فتاحا، عليما... وتنشر الأسماء أنوارها الفائضة من مشكاة الله.. معاني تملأ غصنك الراكع رهبة في مقام التعظيم!

يا صاح، أوقد سراج القلب من زيت هيبة الجليل، المتجلي نورها على صفوف الراكعين ببابه! تنكشف عنك ظلمات الشرود، وتنبت دالية المحبة أمامك؛ فيهب عليها نسيم الخشية، الوارد من فضاء التملي للأسماء والصفات، تسبيحا، وتعظيما! ثم تتشكل قوسا من نور وهاج، تدخل منه أشواقك إلى أفق المعرفة بالله!

كانت آيات العظمة تنساب من كمال ذاته تعالى، وبحار صفاته، كل بحر منها تمده أبحر القدم والدوام، الزاخرة في اللازمان واللامكان! فإذا تجليات الهيبة والإجلال لذي القوة والجلال تنساب تنزيها على مجاري الأنفاس:

ـ «سبحان ربي العظيم..! سبحان ربي العظيم..! سبحان ربي العظيم..!» (16)

....

ومضى جناح الخوف يخفق تحت ظلال العظمة؛ فرارا إلى عفو الملك الغفار! وتمضي الأنفاس حتى فنائها، متبتلة بارتشاف رحيق التنزيه؛ تقديسا، كما يليق بكمال الجمال في نور غيبه سبحانه!

وتحلق أجنحة الفؤاد، فإذا أصداء الحفيف زفرات مرتعشة، حبا ومهابة:

ـ «سبوح قدوس، رب الملائكة والروح» (17)

فيورق غصنك في انحنائه؛ مقامات مزهرة، إيمانا، وإسلاما، وتوكلا، وتذللا، وخضوعا، فتدعو:

ـ «اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، أنت ربي.. خشع سمعي، وبصري، ومخي، وعظمي وعصبي، وما استقلت به قدمي لله رب العالمين!»

وأي جارحة بمقدورها أن تشرد عن رعشة الغصن في نسيم الرهبة؟ وأي فنن هذا الذي يمكنه أن يكف أزهاره عن سح الندى؛ إذا انبجست السماء بقطر لطيف؟

«يا أيتها الأمطار ألا انتحبي! انتحبي!

هذي الدوحة في ذاتي تنشر أكبادا من حطب!

فأديمي رشحك يا بارقة الليل ولا تحتجبي!» (19)

ذلك، ولركوع الليل الساجي إخبات الزرع، إذ تدلت سنابله خاشعة، في سكون الهواء.. إذ يستشعر القلب ولوج الكائنات مقام الفناء، فلا صدى إلا لكلمات التنزيه، تنطلق من فؤاد العبد الساري، وهو يقتفي آثار النور في دلجة الصحراء، إذ ينسدل

عليه مقام الغربة بمشاعر الوحشة الرهيبة؛ فيبكي خوفا أن يضل بعاصفة الشرود، من بعد ركوع وخضوع. فظلمات الحياة ما زالت تنذر بأيامها. ألم يغرق نبي الله ويلتقمه الحوت بعد ركوع سجود لولا أن تداركه الحليم الكريم «وذا النون إذ ذهب مغاضبا، فظن أن لن نقدر عليه، فنادى في الظلمات، أن لا إله إلا أنت، سبحانك إني كنت من الظالمين!» (20) وتستغيث منزها مولاك بصفات التعظيم، اللائقة بجلال ملكه، جبارا، ملكا، متكبرا، عظيما:

ـ «سبحان ذي الجبروت، والملكوت، والكبرياء، والعظمة!» (21) فينهمر النور على قلبك أنسا، بجوار من لا يذل جاره، ولا يعز عدوه! ويعشب المسرى بين يديك نورا متهادي الظلال، عن اليمين وعن الشمال، وينشط الحادي بقلبك شوقا إلى المحبوب!

* * *

كانت واردات النور تغمر غصنك الساكن في انحناء جميل، وكانت التسابيح ترسم لشهودك وقتا؛ لا تنسخه حركة الأفلاك أبدا! كل أنفاسك الساعة مبسوطة.. تلهج بالتنزيه لذاته تعالى وصفاته، ناثرا أنفاسك قطرة قطرة، حتى آخر رمق من رحيق العود! فإذا بفؤادك ينبسط لنسيم من نور علوي الذوق، فترشف منه أحوال جمال، تكسوه ربيعا من رضى مولاك! كانت تلك إشارة إذن؛ كي ترفع غصنك؛ ارتقاء بمقامات التعبد!

❊ ❊ ❊

إلى مقام الحمد والثناء!

ماأجمل النخل بين يدي مولاه! وما أجمل حركته وهو يعود الهويني؛ ليستقيم واقفا في أدب تام!.. ينشر خفقات المحبة حمدا، وثناء على الله؛ اعترافا بجميل العطاء، في مشاهدة آيات العظمة،ركوعا عند عرش الرحمن.

كانت تجليات المقام أبهى من أن تحصيها حمدا تذوقاتُ قلب ضعيف الجناح! سبحانك سيدي، ومن يحصي ثناء عليك؟ بل أنت كما أثنيت على نفسك!..

وتسلم كمال الحمد لربك رافعا:

ـ «سمع الله لمن حمده!» (22)

فتستقيم قائما ، وفؤادك يبتهج رجاء في سماع الله لخفقات الحمد؛ من عابد محدود بالزمان والمكان، شكرا لمن أحاط فضله وكرمه بالزمان والمكان! ويفيض الرجاء دعاء تتشكل أنواره قناديل ذات ألوان:

- «ربنا ولك الحمد!» (23)

ويمضي النبي الكريم يرسم علامات النور، هداية للمتعبدين، الممتثلين لأمر الله، في اتباع إشارات الإمام:

- «... وإذا قال: (سمع الله لمن حمده)؛ فقولوا: (ربنا ولك الحمد)؛ يسمع الله لكم، فإن الله تبارك وتعالى قال على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: (سمع الله لمن حمده)» (24)

وتبرق آفاق الأرض بعبارات الحمد، محلقة في الفضاء، حتى تتوافق مع أنوار الحمد النابضة في السماء ، فتزداد حسنا وجمالا ، ثم تتشكل غيمة من نور، تنهمر مطرا يغسل المصلين، من درن مسيرة العمر كله.. وتتسابق الأنفاس بالحمد؛ لجني عناقيد الاتفاق، أوَليس «من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه!»؟(25) وتعتدل الأغصان مستقيمة، وهي تزرع دفء الاطمئنان في فروعها، حتى ترجع الأنفاس إلى انسيابها الهادئ الجميل، لاهجة بالدعاء والثناء. قال معلم السالكين: «وإذا رفعت فأقم صلبك! وارفع رأسك! حتى ترجع العظام إلى مفاصلها!» (26)

فيا صاح افتح أقواس المقام: حمدا لله بتملي ملكوت الله! فإن أدب العبودية يقتضي المكوث ببابه حتى يأذن بالانصراف! (27) ولتطو المسافات إلى شجر الثناء، بتكثير الحمد على فضله وإكرامه! فاللهم« ربنا ولك الحمد، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه!»(28)، واللهم ربنا ولك الحمد«ملء السماوات ، وملء الأرض وما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد: اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدُّ!» (29).

ويملأ الحمد الكون كله طيبا، مباركا، بأنوارك يا سيدي، فإنما الحمد ما حمدت به نفسك، وإنما الثناء ما أثنيت به على جمالك، سبحانك لا نحصي ثناء عليك ، ولا أهل لذلك إلا أنت!

هذي كلمة الحق الكاشفة، تكشف عن واقع الفقر المطلق إلى الله، وإنها لأحق ما

تعبد به العبد داعيا: «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت!...» فمنك الفضل كله، ولا منة لأحد سواك، فماذا يفيد بعد ذلك المحظوظ حظه؟ وأي حظ خارج فضلك وإنعامك؟ سبحانك، بحانك، لك الحمد كل الحمد!

كانت الكلمات جـ لة ثانية في مملكة الله، تكتسي فيها الأغصان - وهي قائمة - بهاء الألطاف الرحمانية، وبهجة السناء الربيعية، من أثر مشاهدة تجليات الحمد والثناء، فتنفتق البراعم الريانة زهورا، ذات أريج من مسك الأسماء الحسنى، فإذا قلبك جنة ذات أزهار وأطيار، تخفق بتسبيح الواحد القهار!

* * *

هذا الوارد الفياض من نور الله، يغمر مقامك الساعة بمزيد العطاء والإفضال، فتحس بالتصدع في غصنك؛ عجزا عن مقابلة كل عطاء بشكر، وكل إنعام بحمد. ويغلبك بحر الجود الرباني، الممتد امتداد بقائه، ودوامه سبحانه وتعالى؛ فتملؤك الرغبة في الحمد خرا إلى الأرض ساجدا، ومن ذا يرى مدد الله الغيداق؛ فلا يهبط من خشية الله؟

ولفضل الله أعظم من أن يحاط بشكر! فاملأ عينيك يا عابد؛ بجمال قنديل النبوة، المستمد نوره من مشكاة الله؛ تر كلمات الله في الحديث القدسي - ترسم عظمة فضله، وإنعامه سبحانه، أبحرا من نور متدفق أبدا:

- «يا عبادي.. كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم!
- يا عبادي.. كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم!
- يا عبادي.. كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم!
- ياعبادي.. إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم!
- يا عبادي.. إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني!
- يا عبادي.. لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا!
- يا عبادي.. لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئا!

ـ يا عبادي.. لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر!

ـ يا عبادي.. إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه!» (30)

كان الفضل أعظم مما يحصيه الطير تغريدا وتفريدا، وكانت النعمة أطيب مما تنثره زهورك حمدا وثناء!!

فيا مولاي، أكرمني بأن أخر ساجدا بين يديك، فإن فضلك الذي لا يحصى؛ زرع حدائقي بزيتونة مباركة، ما تزال يشهد زيتها النابض في قنديل الهداية، الموقد بين جوانحي، بحقك العظيم علي إلى يوم القيامة!

هذا الشوق الوهاج يهب علي رياحا مباركة، تعطف غصني المتجرد أمامك من أوراق الأغيار والاستكثار، سبحانك سيدي، نورك ما زال يدق بقلبي: «ولا تمنن تستكثر!»، «ولا تمنن تستكثر!»(31) فأذن لي أن أوقد مقامي الأقرب، على بساط التراب، فلا طريق أقرب إلى المقامات العليا من طريق المتربين، تذللا تحت نور عزتك وجلالك، وتنزيها لذاتك وجمالك! وحمدا لعظيم كرمك وإفضالك!

"... واسجد واقترب !"(32)

ـ الله أكبر!

كان الجبل يتصدع، تحت نور الله العظيم، وكانت صخور قمته تهوي خاشعة نحو السفوح تترى، وتهب رياح التسبيح شاهدة بوحدانية الله سبحانه في علوه، فتتصدع الأغصان الصلبة القاسية، ثم تتكسر لتهوي حطاما على الأرض!.. بينما تدخل الأغصان الطرية الندية في حال ارتعاش ربيعي، فتذوق من أندائها بين يدي الله أحزانا وأفراحا، ويثقلها ما تفتح بها من براعم الحمد والثناء، قبيل حالها الجديد، وتهوي منحنية كقوس قزح حتى تقبل عتبة الرب الأعلى!

ويشعل البكاء قناديل من نور الوادي المقدس طوى، ثم ينفتح الباب العالي.. ويتدفق نور الله على بساط سجودك، فإذا التراب والحصى جواهر تشع بجمال السكينة والطمأنينة بين يديه تعالى، فلا تملك إلا أن تبكي..! آه يا صاح! فمن ذا قدير على إمساك أندائه، بغصون بهرها جمال الله في عليائه! فخرجت راحلة إلى مقام الجوار الأقرب؟ وتلك الغصون الريانة بذكر الله «إذا تُتْلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجَّدا وبُكِيًّا» (33) فدُقَّ الباب إذن يا قلبي بأعضائك السبعة! فإنه «إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب: وجهه، وكفاه، وركبتاه، وقدماه»(34)! دُقَّ البابَ ولا تسأم! فإن المحب حقا لا يسأم من نداء حبيبه، تنزيها له في عليائه:

ـ «سبحان ربي الأعلى!» (35)

تلك درجات المقام الأقرب، فارتق بها ما تشاء في معارج المقربين! وأوقد حولك من قناديل التنزيه ألوانا من النور الجميل! تسبيحا، وحمدا ودعاء! واضرب بجناحك سابحا في ملكوت الله حتى تغمرك أنوار الرضوان! هذا الحبيب محمد عليه الصلاة والسلام يهديك أزرارا بلورية؛ لقناديل السرى، وشموس الغدو..

ـ «سبحان ربي الأعلى وبحمده» (36)

ـ «سبوح قدوس رب الملائكة والروح» (37)

- «اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، وأنت ربي! سجد وجهي للذي خلقه، وصوره، فأحسن صوره، وشق سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين!» (38)!

ثم اطلب يا ساجد من سيدك الكريم؛ فيضا من نوره المتدفق رحمة، وغفرانا، وجمالا:

- «اللهم اجعل في قلبي نورا! وفي لساني نورا! واجعل في سمعي نورا! واجعل في بصري نورا! واجعل من تحتي نورا! واجعل من فوقي نورا! وعن يميني نورا! وعن يساري نورا! واجعل أمامي نورا! واجعل خلفي نورا! واجعل في نفسي نورا! وأَعْظِمْ لي نورا!»(39).

تلك إشارات من أدعية سيد العابدين وتسبيحاته، تتوالد عناقيدها من دالية السجود؛ فتَرَنَّمْ يا ولدي بشعاعها المتعدد الأطياف!

* * *

وتمضي أسراب الطير عارجة إلى ربها والغصون ما تزال تمعن في معانقة التراب بأغصانها السبعة، ساكنة، مطمئنة، في انحناء كامل. وبقدر ما يطول إطراق الجبهة والأنف على الثرى؛ بقدر ما يخف الجناح الضارب في معراجه إلى مولاه!

وتسري أنفاسك حتى فنائها.. لاهجة في سكون الأعماق المشرقة: «سبحان ربي الأعلى!».. نجوى فائرة من فؤاد العبد، وهي تفوح بأريج محبة المعبود!.. وينفتح المقام!

... كان الجمال أبهى وأبين، وكان النور أعظم وأروع، وكان فؤادك أقرب وأخشع!..

وتمتد إليك كؤوس الأنس خفقات، تمسح عنك عناء السفر، وتومض حولك نجاوى «ما خَلَقَ اللهُ من شيء يتفيأ ظلالُه عن اليمين والشمائل، سُجَّدا لله وهم داخرون!» (40)، فتتذوق جمال السير في موكب العابدين، الوافدين من كل المدارات والعوالم؛ طلبا لمقام القرب العظيم! «ألم ترَ أن اللهَ يسجد له من في السماوات ومن في الأرض، والشمسُ، والقمرُ، والنجوم، والجبال، والشجر، وكثير من الناس، وكثير حق عليه العذاب؟» (41)! وتفور أنفاسك تتوالى بلا انقطاع، وهي تسابق العابدين مسارعة إلى جوار الله: «سبحان ربي الأعلى!»

هذا مقامك الساعة ترتقي به ثلاث مراتب:

أما الأولى فقد كان الفؤاد يحلق دون أن يلتفت خلفه أو حواليه، والعين مفتوحة على جمال الله في عليائه؛ تسبيحا لا تنقطع أصداؤه بانقطاع ألفاظه.. وتطرق خاطرك

أطيافُ الجبال العالية، والأكتاف العالية، والهامات العالية، فتنهار أشباحها الكاذبة تحت علو العلي جل علاه! فلا مكان هنا لغير الذاكرين، الخاشعين، المُخْبِتين!

أما الثانية فتضرب مرة أخرى بجناحك الخفاق في الآفاق! «سبحان ربي الأعلى!» فينقدح نور قنديل آخر بقلبك؛ ليخفق به الشوق مضاعفا، ويملك ذوق التعبد عليك كل أحوالك، فتتلاشى حواليك رسوم العابدين، فلا مكان في خاطرك الساعة لغير غصنك الساجد لله في مملكة الله! فإذا الحياة الدنيا بما فيها تطوى تحت بساط سجودك، مثلما تطوى الأحلام والأوهام! وتمضي في معراجك بين المدارات فردا إلى الله! ذلك مقام استشعار اليوم العظيم: «إنْ كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمنِ عبدا! لقد أحصاهم وعدهم عدا! وكلهم آتيه يوم القيامة فردا!» (42)

لا إله إلا الله!

....

وأما الثالثة فقد كان واردك فيضا رقراقا، وكان النور يحيطك من كل جهاتك، فترشف نَفَساً آخر من كأس التنزيه: «سبحان ربي الأعلى!».. فيمتد النور ليمحو كل العوالم التي سلكت معارجها إلى ربك أثرا، أثرا.. حتى تفنى عما سوى الجليل وحده! ويخفق قلبك شاهدا عبوديته لمولاه، متذوقا عذوبة كوثرها الجاري في مقام الجوار الأقرب، عذوبة رافدها جمال الأنس بالله!

كان النور أعلى تسبيحا وتنزيها، وأقرب محبة ومراقبة، بحيث انبسطت أمامك ذاكرتك مكشوفة الصحيفة، عليها آثامك وخطاياك، مما تقدم وتأخر، نُكَتا سوداء زاحمتْ أوقاتُ شرودك فيها، أوقاتَ إنابتك، فتلسعك سياط الخجل بين يدي مولاك، وتبكي عليها أثرا أثرا؛ حتى تذوب الواحدة تلو الأخرى، في نهر دموعك المستمد من عفو الرحمن!! فتدعو، وتدعو بإلحاح!.. فواحسرة على عبد سجد فما دعا! عجبا! كيف يرجع بغير زاد وهو عائد من حيث أتى؟! ثم عجبا لمن يطرق باب الكريم فلا يسأل من لا يرد سائلا؟ وأنَّى يستغني عن فضل الله ورحمته؟

كان الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم يمد أمته بقبس من نور المعبود، يوقد به قناديل في طريق السالكين، لا تنطفئ إلى يوم القيامة:

- «... ألا وإني نُهيت أن أقرأ القرآن راكعا، أو ساجدا، فأما الركوع فعظموا فيه

الرب عز وجل! وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء! فَقَمَنٌ(43) أنْ يستجاب لكم!»(44) وإن «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء فيه!» (45).

وهنا تذكر أحزانَك وأشجانَك، وجراح هذه الأمة الكسيحة؛ فتفزع إلى الله بالدعاء، تذكر ذلك كله دون أن تفارق صفاء مقامك، وجمال اطمئنانك، فما كان جار الله الأقرب أن ييأس من رَوْح مولاه «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أجيب دعوة الداعي إذا دعان، فليستجيبوا لي، وليومنوا بيَ لعلهم يرشدون!»(46) وتفور الأدعية من أعماقك نفَسا محملا بأريج التسبيح، والتنزيه، وأنت ساجد عند عتبة المولى الكريم، فإذا الرحمة تغمرك بكل دعاء منها غيثا ربيعيا، يهمي عليك كوثر شفاء، وشراب عافية؛ حتى تلامس جروح قلبك، فإذا بها برئت تماما، فتسري بغصنك من فرح الاستجابة! وتبكي، فتزداد خشوعا...!

تلك يا صاح كرامات الصالحين! الذين «يخرون للأذقان سجدا ،ويقولون سبحان ربنا، إن كان وعد ربنا لمفعولا، ويخرون للأذقان يبكون، ويزيدهم خشوعا. قل ادعوا الله، أو ادعوا الرحمن، أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى!» (47).

ـ أين أنت الآن؟

أنت في أقرب خفقة من ربك في مقام لا تفسده عليك أمواج الزمان والمكان بضجاتها!

فيا أيها الشارد عن قافلة السراة السالكين إلى الرحمن! ذق سجدة واحدة لله الواحد القهار! تر مقدار ما أنت فيه من حرمان وضلال، ومقدار ما عليه الساجدون من نعيم، وجمال! ألا تنظر إلى نفسك كيف تدب في الأرض على أربع؟ ويحك ذق مواجيد السجود! تورق أغصانك المنحنية إلى الثرى ريشا جميلا، فتطير مع أسراب العابدين، أخف وأنشط لتنال من نعيم الله! فيا أيها العبد المستقيم،«عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة! وحط عنك بها خطيئة!» (48) ألا وإن السجود هو كمال العبادة، وهو جمال الجباه في غرر الخيول الراكضة إلى الله، وهو دليل الصالحين: «سيماهم في وجوههم من أثر السجود»(49) وهو نورهم الذي به يعرفون يوم القيامة. قال الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم:

ـ «ما من أمتي من أحد إلا وأنا أعرفه يوم القيامة!

ـ قالوا: وكيف تعرفهم يا رسول الله في كثرة الخلائق؟

ـ قال: أرأيت لو دخلت صُبْرَةً(50) فيها خيل دُهْمٌ، بُهْمٌ، وفيها فرس أغر محجل، أما كنت تعرفه منها؟

ـ قالوا: بلى.

ـ قال: فإن أمتي يومئذ غُرٌّ من السجود، مُحَجَّلُون من الوضوء!» (51) ويجد الجد، فينذر الحساب بهوله وزحامه، ويعتقل الفزع ألسنة الظالمين وركبهم، وتخفق القلوب وجلة، وهي أحوج ما تكون من أي وقت مضى إلى رحمة الله! هنالك يدعى الذين أمضوا حياتهم الدنيا؛ شاردين عن باب الله؛ إلى السجود بركب معتقلة؛ تعذيبا لا تعبيدا! فيا لرجفته من يوم! ويا لرجته! «يوم يكشف عن ساق، ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون، خاشعة أبصارهم، ترهقهم ذلة، وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون!» (52)

فيا أيها العبد المحب، دع عنك عذل العذلين! ولذع الساخرين، وزجر الطغاة المتكبرين، وانصرف بوجهك كاملا إلى مولاك! وافتح باب سجودك! فإن لك فيه مقاما؛ من وصله عرف الله حقا، وصدقا، وشاهد تجليات الإحسان أنوارا، بما لا يصفه لسان، إلا إشارات لا تغني في البيان، عن ذوق بالجنان!

ـ قال الروح الأمين جبريل عليه السلام لمحمد صلى الله عليه وسلم:

ـ «فأخبرني عن الإحسان!

ـ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك!» (53) وكيف تراه وأنت عنه بعيد؟.. ويحك يا جاهل! أحرم عن متاع الحياة الفاني إلى نعيمها الباقي! واتخذ قرارك صلبا قبل فوات الأوان! فإن الأيام لا ترجع القهقرى أبدا! ولتفك عنك قيود إبليس! ولتجرد فؤادك من هواه!.. هذا شبح الظلام يناديك، ملوحا لك بالمناصب، والألقاب، والقصور الشامخات، والغواني الفارهات..! حذار يا صاح! فإن شبح الظلام غرور، يغريك كي تضل عن طريق مولاك؛ فتردى «كلا! لا تطعه، واسجد، واقترب!» (54) ففي سجودك بين يدي الله ترى أنما مغريات إبليس تماثيل من طين، لما ينهمر المطر تذوب تترى، فلا يبقى إلا الله الواحد الحق!

كان سجودك رحلة إلى الله، يخشع فيها الغصن بوضع هامته على التراب، ويخفق

القلب محلقا إلى المقام العالي، مخلفا وراءه ركام الألقاب والأحزاب، ومعارك المال والأعمال، مما يدلى به إلى الحكام ورموز الآثام!

حينها كان الغصن هادئا، وساكنا، منحنيا فوق الثرى، وموجها كل أطرافه نحو القبلة: باب العروج إلى الرحمن، متبعا أثر الرسول صلى الله عليه وسلم في طريقه إلى الله، فهو أعبد السالكين ودليلهم. وقد «كان يعتمد على كفيه ويبسطهما، ويضم أصابعهما، ويوجهها قِبَلَ القِبْلَة» (55) و«كان يُمَكِّنُ أيضا ركبتيه وأطراف قدميه»(56) و«يستقبل بأطراف أصابعها القبلة» (57)

كل شيء إذن فيك راحل إلى الله، عبر سجود خاشع، عميق الأنفاس! حتى الثوب، والشعر؛ إذ تدلى شيء منهما فلا يجمع! حتى يتم رسم صورة العبد المسلم أمره كاملا إلى مولاه! قال الحبيب عليه الصلاة والسلام معلما: «أمرنا أن نسجد على سبعة أعظم (...) ولا نَكْفِتَ الثيابَ والشعَر!» (58) لوحة في تمام التشكيل والتلوين، تفيض بآيات الجمال! فأي صورة هذه، وأي معنى؟

هذا العرجون المتدلي فوق الثرى، أشبه ما يكون بالجسد المقبوض روحه؛ لكن الحياة هنالك تتدفق في عمق سكونه المهيب! وللقلب الخاشع خفقات، ترفع الطير الراحل مقامات، يختزل بها المسافات، التي ضاقت عنها القرون!

وأي عود يقدر أن يستجيب لريح الشرود، فيخرج عن خشوع السجود، وقد انفتح باب الله على قلبه، فذاق ما ذاق من كمال الجمال؟

كنت من قبل قائما، فكان لسانك يقرأ، وفؤادك يصغي، فتنفتح الأقواس أمامك عن مملكة الله الفسيحة، لكنك الساعة ساجد ولسانك يدعو مسبحا ومنزها، وفؤادك يشاهد وجلا؛ فيخشع ويخنع، ثم يطمئن وكأنه يسمع: «إنَّنيَ أنا الله، لا إله إلا أنا؛ فاعبدني، وأقم الصلاة لذكري!»(59).. وتسكن العروق والأفنان للحي القيوم، فلا صدى إلا لسح الندى، يسري متبتلا في غمرة الدعاء، هاميا من مقلتيك على الثرى.. فإذا الصفوف حواليك دوالي، تورق ألطافا من الخشوع، وإذا الطيور بأحضانها تبث شكاواها لمولاها، همسا من الأعماق، متأدبة بما يقتضيه المقام من الكلام: «وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا!»(60) فلِمَ لا يُقَبِّلُ الحبيب أعتاب المحبوب، وقد جاد على الفؤاد بكشف المحجوب؟ فعرف ما عرف ثم اغترف، وذاق من شهوده في سجوده، ما أحياه بعد

موات! «لقد كنتَ في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد!» (61)

وترشف من كؤوس التعبد عبودية السجود لربك الأعلى، فتتحرر من كل الأغلال: المال، والسلطان، والأماني الفانية، فتجري جداول الروح بين يديك صافية ثجاجة، تسقيك من أندائها جمالا ربانيا ينضر غصنك المنحني على الثرى، ويبعث فيه حيوية، وفتوة لا تسكبها أباريق الرياضات!

* * *

ها هي رياح الإذن تهب الآن على الحدائق الساجدة غصونها... كانت محملة بأريج الرضى، والعفو، والمغفرة... تستنشق مليا؛ فتنتشر في فؤادك راحة من مقام آخر، وتدرك أن آن الأوان لترفع جالسا!

فترفع رأسك، وفي قلبك شوق عميق للرحيل سجودا إلى يوم القيامة! فما يزال النبض الساجد يفيض على غرة صاحبه، نورا، لا ينتهي بانتهاء الصلاة! فكيف لا يمعن المصطفى الحبيب؛ في وضع وجهه الطاهر على ماء وطين؛ تذللا بين يدي مولاه؟ تلك صورة غرست دالية نور، بومضتها البارقة في أفئدة الصحابة، فسحت ما سحت، على قلب الأحب الجليل أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وهو يتملى طلعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيد الصلاة! فأوقدها أبو سعيد بهجة قنديل، في طريق المحبين إلى يوم الدين! قال متذكرا:

- «...كان سقف المسجد جريد النخل، وما نرى في السماء شيئا، فجاءت قَزَعَةٌ (62)، فأمطرنا، فصلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم» (63) ثم سال السقف على مكان سجوده عليه الصلاة والسلام وهو يؤم المسلمين بين يدي المولى الكريم، خاشعا متبتلا، والماء يغمر الثرى من تحت وجهه الطاهر، وهو ساجد لله، فما يزيده ذلك إلا حبا، وشوقا إلى مولاه! قال أبو سعيد - بُعَيْدَ انصراف النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة -: «فأبصرتْ عيناي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، وعلى جبهته، وأنفه أثر الماء والطين!» (64)

ألا صلى الله عليك يا محمد! أي حب هذا الذي سكن قلبك لمولاك؟.. فتقبل الثرى بين يديه، وتمرغ جبهتك وأنفك الطاهرين في الماء والطين! فلا يزدادا إلا طهرا وجمالا!

أنت النبي، الصفي، الحبيب، الخِل، المصطفى، المجتبى، سيد الخلق، وإمام الأنبياء والمرسلين.. تأبى إلا أن تكون عبدا!..

أخلايَ أنتم أحسنَ الدهرُ أم أسا *** فكونوا كما شئتم أنا ذلك الخِلُّ!

فيا لجمال العبودية في سجودك يا رسول الله! ويا للبهاء المتدفق من مسجدك المتواضع لله!.. ترحل فيه بين جريد نخل قديم، ينز قطرا بمحرابك المترب، وبين طين يرتسم على وجهك وساما من نور، يرفعك إلى مقام العبودية الأعلى!.. ويأنف المترفون اليوم ـ إذا سجدوا ـ ألا يسجدوا إلا على فراء الحرير!

ـ وهل يسجدون حقا؟..

ألا شتان، شتان بين سجود الأحباب وسجود الأخشاب!

جلسة بين يدي الملك !

ـ الله أكبر!

وترفع رأسك خاشعا بين يدي مولاك، ترفعه دون أن ترفع بصرك! فالملك ما زال قِبَلك، يرقبك من فوق عرشه العظيم، وأنت تنثر روح المحبة والإخلاص، والولاء الكامل؛ قائما، وراكعا، وساجدا، وجالسا بين يديه. فاجلس إذن؛ دون أن تفارق عيناك موضع سجودك! ولهيأة الجلسة بين السجدتين جمال آخر، وذوق جديد، فقد كان النبي المعلم صلى الله عليه وسلم «يرفع رأسه من السجود مكبرا»(65) ثم «يفرش رجله اليسرى، فيقعد عليها مطمئنا»(66) و«كان ينصب رجله اليمنى» (67) و«يستقبل بأصابعها القبلة» (68) ثم «يطمئن حتى يرجع كل عظم إلى موضعه» (69) و«كان يطيلها حتى تكون قريبامن سجدته»(70) وأحيانا «يمكث حتى يقول القائل قد نسي!» (71) فأي مقام هذا الذي يدخله النبي صلى الله عليه وسلم في جلسته تلك؟ وأي جمال هذا الذي يطيل مشاهدته تذوقا، وتمليا؟

ـ هل تريد أن تعرف؟

يأيها العبد الجالس أمام سيدك ومولاك! أنت الآن في مقام كريم، بين يدي رب كريم، ألم تر أن سيدك هو الملك العظيم، ذو العرش المجيد، قاصم الجبارين، ومذل المتكبرين. يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم راويا عن ربه: «العز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني بشيء منهما عذبته!» (72) وفي رواية أخرى: «الكبرياء ردائي، فمن نازعني ردائي قصمته!» (73)

فهذه صفوف الملائكة عنده خاشعة، وجلة: «يوم يقوم الروح والملائكة صفا، لا يتكلمون، إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا!» (74) مولاك هذا، ذو الجلال والجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، يأذن لك الساعة بأن تجلس مطمئنا بين يديه، وتسأله سؤال المحبين! وكان خليقا بالعبد ألا يُرى عند مولاه إلا واقفا ممتثلا، يسمع أمره ونهيه، قانتا خاشعا، أو راكعا معظما، أو ساجدا منزها ومسبحا للرب الأعلى! ولكنه

الله، الملك الكريم، يقبلك عنده جالسا، تعبده بجلستك تلك، وكل عضو منك يدخل في سكون، وراحة، كاملين، فتغرف ما تشاء من أنوار الاستغفار، لتزرع غصنك بنشاط جديد، يمسح ما قد ناله من عناء أو عياء في سفاره، واقفا، أو راكعا، أو ساجدا.. دون أن تتوقف عن المسير إلى الله في جلستك، فهو جلوس من غير توقف، كأنك على ظهر براق يطوي بك السماوات، وأنت ساكن بمقعدك المريح، فلْتُنَاجِ مولاك متأدبا بخفقات المحبة والحياء، لما أفاض عليك من إنعام وتكريم!:

ـ «اللهم اغفر لي! وارحمني! واجبرني! وارفعني! واهدني! وعافني! وارزقني!» (75)

تدعو.. وأنت تتملى هبة الملك الوهاب، ثم تنظر إلى نفسك في جلستك تلك، فتحس أنك بقدر ما تجد عظمة الهبة التي لا تحاط شكرا؛ ولا بعدد أنفاس بني آدم، حمدا، وثناء، وتسبيحا؛ بقدر ما تشعر بهول التقصير في حق الله! فيستبد بك الحياء وتبكي:

ـ «رب اغفرلي! رب اغفر لي!»(76)... حتى تذوب الأنفاس!

وتمضي في تأملاتك، ذاكرا متفكرا؛ حتى يغلبك نافح الشوق؛ فتضرب بجناحيك إلى المقام الأقرب مرة أخرى؛ ساجدا لله الواحد القهار، تغرف من بعد التخلي جمال التحلي! كي تنهض بعد ذلك إلى ركعة أخرى قائما، وراكعا، فساجدا، فجالسا، عبر مقامات من السفار في مملكة الله، ذات أذواق وأحوال!

* * *

في موكب العابدين

يا لجمال هذا العبد المحرم في صلاته، راحلا إلى الله! يبتغي فضلا منه ورضوانا، مضربا عن غوغاء السكارى، الشاردين في جحيم الضياع! ما أجمله وهو يمتطي راحلة النفس المطمئنة، راجعا إلى ربه راضيا مرضيا، فيقطع المسافات التي تقصر عن استيعابها الأعمار، ويختزلها بين ركوع وسجود، نشيط الروح، في قافلة من السائرين «تراهم رُكَّعاً سُجَّداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا، سيماهم في وجوههم من أثر السجود!» (77)

كان يرحل في حركاته الجميلة، بين استقامة وانحناء، كحروف عربية تنبض هالاتها الوضاءة من آية قرآنية رسمت على قوس محراب! ينثر روحه بين يدي ربه نَفَسا نَفَسا، بكل أمانة وإخلاص! شاهدا جلال الركوع وجمال السجود، لحظة لحظة، من دون نقص ولا خرم!

وإن «أسوأ الناس سرقة؛ الذي يسرق من صلاته!

ـ قالوا: يا رسول الله، وكيف يسرق من صلاته؟

ـ قال: لايتم ركوعها، وسجودها!» (78)

وتمضي في رحلتك المباركة، وسط سبحات الطير، والجبال، والشجر، والبحار.. في موكب كوني من السائرين إلى الله: ترحل قائما في خشوع الجبال، والأشجار العظيمة، الضاربة بهاماتها في الفضاء، تقوم مرتلا بدون حراك، إلا كما تتململ النخلة من حر الشوق إلى مولاها!

ثم تهوي راكعا، كما يميد العرجون المثقل بعطاء المنعم الكريم أو كما تنحني الأغصان الغضة، المثقلة بالعناقيد، أو الفاكهة الكثيرة، وتخشع خشوع السنابل المسبحة مع الرياح، وتسكن سكون الأجراف الصخرية المطلة من علياء على البحار، والسهول، والكهوف.. ثم تغطس ساجدا لتسبح الله مع الحيتان، والأسماك، فينبض قلبك شوقا إلى مولاك؛ نبض اللهب في أعماق الأرض، ثم تجلس بعد ذلك لتعبد ربك مع كل وهط ومنخفض، من أعشاب السهول، وحدائق الواحات، وحصى البطاح. وتمضي

في حركاتك الانحنائية؛ متواتر السير مع الأمواج، والرياح، والأفلاك، رافعا وخافضا، تعبد ربك في مدارج الرسول بدقة، عبر منازل ومقامات من الجمال والجلال، في موكب الكون السالك بتقدير مولاه: «والشمس تجري لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحون!» (79)

ها أنت ذا إذن تختزل الكون كله بصلاتك، لتشكل منها موكبا عظيما من المخلوقات وهي سائرة إلى الله، على نسق واحد، لا يصطدم بعضها ببعض، بل متوازية السير والتسبيح!

وتتحرك في صلاتك عبر الزمن؛ إحراما مع الفجر، وقياما مع الظهر فركوعا مع العصر، ثم سجودا مع المغرب والعشاء وما بعدهما إلى أن تشرق هامتك؛ قياما مع انفلاق فجر جديد!

وتتغير الأحوال والمشاهد والمواجيد، من ركعة إلى أخرى، رغم ثبات الهيآت، وكثير من القراءات والتسبيحات، فالفاتحة هي نفسها في كل ركعة، لكنها تفتح عليك أقواسا من المعرفة، وتذيقك مواجيد من المحبة، غير ما فتحت عليك، وأذاقتك في الركعة الأولى! وأما السور والآيات؛ فعجائبها لا تنقضي، وكنوزها لا تفنى أبدا!

والكؤوس غير الكؤوس، والأذواق غير الأذواق!

وما زلت في موكب العابدين، ترقى وترقى؛ حتى تبلغ مقام التشهد!

وهب عبير التحيات !

ها أنت ذا جلباب نور تملأ هالته المكان، ترفع غصنك من سجود لتجلس بعد سفار ركعتين كاملتين.. كانت حدائقك قد فتحت أشجارها زهور لوز ورمان، وأخرى مسكية الأريج، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.. ويهب العبير عليلا طيبا، فيخفق الجناح فرحا بلقاء الله.. ثم يفيض النور العلوي أقواسا ذات بهجة، إيذانا بانفتاح مقام التشهد، فإذا بك تدلف إلى عالم ضحوي الشعاع، ربيعي الألوان.. هذا مقام جني الثمار، بعد طي أحوال السفار.. فوارد الرضى يعمر قلبك الساعة بحب الله، ويمدك برشفات من كأس الوصل الأولى، فيتجلى ربك بجلاله وجماله على قلبك النابض؛ شوقا إلى لقياه.. ويأذن لك بالتحية!

يا له من كرم! ويا له من إنعام! فلتنثر زهور روحك بين يدي حبيبك يا صاح، ولتأخذ بأسباب الأدب النبوي، قبل بث تغريدك بالتحيات!

كان سراج الأمة محمد صلى الله عليه وسلم يرسم تعاليم النبوة في أدب لقاء الرب العظيم، عند التشهد الأول من الصلاة: «فإذا جلست في وسط الصلاة، فاطمئن، وافترش فخذك اليسرى، ثم تشهد!» (80)

وكان النبي صلى الله عليه وسلم «إذا قعد في التشهد وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى» (81) و«كان صلى الله عليه وسلم يبسط كفه اليسرى على ركبته اليسرى، ويقبض أصابع كفه اليمنى كلها، ويشير بأصبعه التي تلي الإبهام إلى القبلة، ويرمي ببصره إليها.» (82) و«كان إذا أشار بأصبعه؛ وضع إبهامه على أصبعه الوسطى» (83) و«كان يحرك أصبعه يدعو بها» (84) ومرة «رأى رجلا يدعو بأصبعيه فقال: أحد، أحد!.. وأشار بالسبابة» (85) منبها له إلى ضرورة التشهد بأصبع واحدة، هي السبابة لا غير! «وليعلموا أنما هو إله واحد، وليذَّكَّرَ أولو الألباب!» (86)

ولمقام التشهد جمال وبهاء.. فهذا العبد المدعو إلى مائدة مولاه، لينال من فيض عطائه بهجة الوصال، وفرحة المناجاة، جالس جلسة الأنبياء والصالحين، تفوح أجنحته طيبا من مسك التجليات، وعنبر المشاهدات، مما نالته مواجيده في أحوال الركعتين الأوليين، عبر مقامات الإيمان، ومنازل الإحسان، في تذوقات السير إلى الله..

تجيء إذن إلى هذا المقام، محملا بعبيرك الطاهر، لتجلس عند بارئك الذي صورك، وكرمك، ثم دعاك إلى مائدته، لتغرف من معين الجمال أنوارا، فتضفي على طهرك أطهارا، فإذا الأقواس تنفتح أمامك جنة وأشجارا، وجداول وأنهارا، وتهب الصبا أريجا من رياحين الأنس بالله، ثم ينبجس القلب بين يدي سيدك بالتحيات؛ زهورا وأطيارا، تنثر الحب طيبا وتغريدا، وأنوارا.

تجيء إلى هذا المقام لتعبد ربك جالسا مرة أخرى، فتشهد كمالات التوحيد.. تمد سبابتك اليمنى فوق فخذك مشيرا إلى القبلة حيث يفيض النور، وحيث تتجه القلوب خفاقة الأجنحة، تطوي المسافات بالسبحات والصلوات، لتجلس هاته بمقام التشهد موحدة جمال الرحمن، ومؤدية خفقة الشكر للملك المنان!

يا صاح أحد، أحد! فإن الملك الديان واحد!

هذا عبير الرضى والسلام يا زهور فارتجفي! ثم انثري روحك بين يدي مولاك خاشعة الغصون!

ـ «التحيات لله، والصلوات، والطيبات!» (87).. تلك خفقات المحبة تنطلق من فؤاد العبد؛ لتحية المولى بالتمجيد والتوحيد والتفريد، تحية مباركة طيبة ، كما يليق بجلاله وسلطانه! تحية جامعة لكل حمد وثناء، كما أثنى هو سبحانه على نفسه،مما علمنا وما لم نعلم، فهي تحيات.. وله تعالى الصلوات، مما فقهنا وما لم نفقه، دعوة، وتغريدة، وخرة بحرية، ودورة فلكية... فهي صلوات! وله سبحانه الطيبات من الأعمال والعبادات، والتسبيحات، والخطوات، والسكنات، والخطرات!

تلك التحيات الطيبات المباركات؛ إنما هي لله رب العالمين!

ننشرها أنفاسا خاشعة بين يديه، جالسين لدى تجليات جماله وجلاله، نستمد منه السلام، فهو السلام! فيفيض علينا من كرمه وفضله، مجيبا بالسلام ، فهو السلام وله السلام!

وتدعو مأذونا بالسلام ـ عاملا بآداب المقام ـ لنبي الأمة صلى الله عليه وسلم ودليلها إلى الله ، فإنما حب النبي من حب الله، فتحية لك يا حبيب الله؛ بما شرعت وكما شرعت:

ـ «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته!» (88) سلاما ينشر أجنحة القلب ويغمرها شوقا إلى روضتك الطاهرة، بمقامك الكريم إلى جوار الله! ويوقد الأنوار بقافلة السراة المحبين، قناديل من بوارق سنتك الزاهرة!

فلحاقا يا قلب بركب الصالحين! السالكين إلى الحبيب الملك السلام واشهد معهم تجليات السلام!

.. ويهمي الوارد رقراقا:

«السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين!» (89) فيمتد النور أمواجا، ليشمل كل عبد صالح في السماء والأرض!

ثم تعود إلى ربك؛ لتحقق تشهدك بين يديه، ولا شاهد عليك سواه:

ـ «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله» (90) شهادة واضحة المقاصد، صافية المواجد، تختزل فيها نبضك ، ومسيرة عمرك، من البداية حتى النهاية، بل تختزل فيها الكون كله، في أبعاده المكانية والزمانية، أفقيا وعموديا، فإذا هو ذرة واحدة، تستمد فضل وجودها من الرب العظيم!

شهادة تشهد بها على نفسك ـ بين يدي الله ـ أن أغصانك بما أورقت، وأزهرت، وأثمرت، لن تميد إلا ساجدة لله، الذي لا معبود بحق سواه!

شهادة تقر فيها بكل حرية واختيار؛ أنك لن تسلك إلى مولاك في دلجة السالكين والشاردين، إلا مستنيرا بقنديل المحبة الوهاج، الموقد بيد الرسول الأمين عليه صلاة الله وسلامه، فهذه آيات الله تلقي الأمر المقدس: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله، ويغفر لكم ذنوبكم.والله غفور رحيم» (91) «يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله، يوتكم كفلين من رحمته، ويجعل لكم نورا تمشون به!» (92) فماذا بعد هدي المصطفى عليه السلام إلا الضلال؟

شهادة تصف فيها ما تعتقده في شخص محمد صلى الله عليه وسلم؛ عبدا ورسولا لله، يبلغ عنه التكاليف للعباد، وهو أول العابدين، فتتجلى فيه صلى الله عليه وسلم أنوارها

ثم تشع في السالكين ، فأكرم بها من نبوة! أشرقت على خاتم النبيئين: العبد الذي وَلِهَ بعبوديته لله، حتى تفطرت قدماه! زاهدا في الملك وفي زخارف الحياة الفانية، فعاش مع السالكين، يدعو ربه بالغداة والعشي يريد وجهه! فحقق عبوديته لله قائما وساجدا، ومعلما ومجاهدا، فاستحال بذلك أن تقول أمته فيه ما قالت النصارى في المسيح عليه السلام.

فعليك السلام أيها النبي ورحمة الله وبركاته! ونشهد أنك عبد الله ورسوله، بلغت ، وأديت ،ووفيت، وجاهدت في الله حق جهاده حتى أتاك اليقين! فعليك السلام، عليك السلام ، عليك السلام!

كانت شهادتك قد ملأت قلبك بجمال اليقين، وعمرت حدائقك بأنوار التوحيد، وأنت جالس إلى مائدة الرحمن، تنهل من أوراد الإيمان خاشعا، إلى أن بلغت الجوهرة الكبرى، التي شعت أسرارها حتى ملأت المقام كله، فكانت عَلَماً عليه، وكان (تشهدا).. جوهرة يوشحك الرحمن من لطائفها نضرة وجمالا، ويسقيك من معينها واردا زلالا!

فيفتح قلبك ـ وقد هز جذعه النور الرقراق ـ أجنحة من طهور السلام، تخفق مع الملائكة إلى جوار الله؛ لتصلي على النبي، دليلك المحبوب إلى مولاك، ويومض في خاطرك قولُه تعالى: «إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما!»(93) فتبادر إلى احتساء كأس الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، المغروفة من حوضه الكريم، وتهتف ساكن الغصن خفاق الجناح، فرحا بإنعام الله عليك، وإذنه لأشواقك الحرى أن تصلي على سراج الأمة ودليلها:

ـ «اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد» (94)

وتمضي في بعث أشواقك للنبي صلى الله عليه وسلم، وأصبعك ما تزال تتحرك في اتجاه القبلة، شاهدة على اعترافك بحب المصطفى، في جلستك أمام خالقك وهو يستمع إلى بوحك بحب محمد وآله.

كانت صلاتك على الحبيب تفور دعاء، محلقا نحو الملك العظيم، ثم تسح من لدنه تعالى على روضة المصطفى ثناء، وتكريما وتفضيلا، ورفعة إلى المقام المحمود، والدرجة الرفيعة! فاللهم صل وبارك على محمد وعلى آل محمد! كما صليت وباركت على

ابراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد. ولآل إبراهيم مقامات المصطفين الأخيار، فهم الأنبياء أبناء الأنبياء، وإن محمدا منهم وهو أعلاهم مقاما، ولآله الطاهرين ما لآل إبراهيم، فهم الصديقون والشهداء!

فيا أيها الخاشع جلوسا بين يدي الله! تنال من كرم الله، ويحك أكرم نفسك بالصلاة على محمد! فإن «البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي!» (95) فافجر ينابيع الرحمة على أغصانك شلالا! يتدفق من جبال الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم، فما زال انصبابه يرتفع في السماء؛ ما دمت تدعو بالصلاة عليه، فيشتد شلال الرحمة الربانية تدفقا على أغصانك الولهى، فلا يُبقي بها درنا! ذلك مصداق البشرى النبوية الكريمة لقوافل السالكين:

ـ «من صلى علي واحدة، صلى الله عليه بها عشرا!»(96) فإذا الجنان أبواب مفتحة، يفوح أريجها نسيما، مرحبا بجناحك المنهك بمكاره الطريق، وإذا طيب الصلاة على النبي ينبعث من زهور شجرة الشفاعة، فيحط على غصنها ، فرحا بكرم الله!

فاقترب يا ولدي من خمائل الحبيب محمد! فهذه ظلاله يرقرق ماؤها حوضا نبويا، تهفو إليه القلوب العطشى من أمته، فلا يدرك كوثره إلا الصالحون! فمد يدك! إن كأسا واحدة من حب الحبيب؛ بعشر أمثالها رحمة، ومغفرة ، ورضوانا!.. أليس كذلك يا رسول الله؟

ـ قال حبيبي: «من صلى علي واحدة، صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه عشر خطيئات، ورفع له عشر درجات!» (97).

فأزهري يا غصون بكل فصل! وبثي أريجك بكل أرض! فكل الأزمنة راحلة إلى الله، وكل التراب عابد لله، وحيثما أدركتك الصلاة فصل! وزين تشهدها بالصلاة على النبي! وما زال عليه السلام يستقبل من أعمال أمته صلاة الأحبة عليه، وما زالت كلمته قنديلا يحث السالكين باغتراف الرحمة، والمغفرة، والرضوان من جمال الرحمن. فيا رسول الله! هذا فؤادي شوق راحل إليك، أفتراه يبلغك؟

كان الجواب صدى لكلمة النبوة، الناثرة برد الماء على حشا العطشان:

ـ «حيثما كنتم فصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني!» (98)

فالصلاة والسلام عليك يا رسول الله!.. الصلاة والسلام عليك يا رسول الله!..

يا أيها العبد الساري في غسق الدجى! امدد قنديلك زيتا؛ من هذا الجوى الخفاق بين ضلوع الطير الضاربة في الفضاء، ترسل أجنحتها في النسيم الراحل إلى منازل الحبيب! ويا حادي القلب، ويحك لا تبرح تغريدة الصلاة على النبي! فللخف منها خفة، ونشاط!

اللهم يا رحمن إنا قد أحببنا حبيبك فاشهد! أحببناه عبدا قانتا لله، ونبيا يفيض بنور الله، ورسولا مبلغا عن الله! فاشهد!

اللهم صل وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، كما صليت وباركت على آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد!

تلك شهادتك لدى مولاك تفيض بأنوارها على داليتك الخاشعة، فتزداد قربا من مشكاة النور الإلهي، وهل حب النبي إلا ومضة من بوارق حب الله؟ مشرقة في سماء السالكين، هادية إلى أعتاب الله!

* * *

كانت مسيرتك ـ عبر جلسة التشهد الأول ـ بهية الكشوفات، عطرة التجليات، فصرت تتوق ـ وقد خلع عليك المولى الكريم فيها جلباب الرحمة، وبردة الرضوان ـ إلى الخدمة في عبادته؛ تحقيقا لمزيد من لذة التعبد في حضرته؛ ركوعا وسجودا بين يدي عرشه، لتنهض نشيط الجناح؛ تقوم ممتثلا أمام جلال ملكه، وجمال وجهه سبحانه وتعالى.. تسفر في مقامات أخرى، وتدخل عوالم ذات أحوال وأذواقٍ جديدة، مما لم تجد قبل ولم تذق، سائحا في مملكة الله، تجني من أطايبها ما تشاء. حتى إذا أديت حق الله كما أمر الله، عبر صلاتك، ثلاثية كانت أم رباعية، ثم أذن لك في الجلوس إلى مائدة الرحمن ثانيا، مستروحا بعبيرها، أوقدت قناديل سمر جميل، تحت خمائل الملك الكريم..!

ومددت يدك لترشف من كأس الوصل الثانية، واردات التشهد الآخر، فيتجلى ربك بجلاله وجماله، على قلبك المسكون بحبه.. ويأذن لك بالتحية مرة أخرى!.. ثم تأخذ بأسباب الأدب النبوي، في تحية مولاك بالتشهد الآخر، وتجلس على هيأة أخرى، غير ما صنعت في التشهد الأول، هيأة ذات بهاء وضاء، ووقار عظيم،.. ويمتد النور من عينيك المشوقتين برؤية محمد صلى الله عليه وسلم أول العابدين، وسيد القانتين، وهو يصلي جلوسا بين يدي ربه، في تشهده الثاني، لتقتدي به، تفعل ما يفعل، حرفا بحرف! فهو إمام السالكين، و«إنما جعل الإمام ليؤتم به»(99)..

فها هو ذا الحبيب قد أتم الركعة الأخيرة، وجلس للتشهد الأخير، فتتبعه في جلوسه خاشعا، إذ «يقعد فيه مُتَوَرِّكاً» (100) أي: «يفضي بوَرِكِه اليسرى»(101) إلى الأرض، ويُخرج قدميه من ناحية واحدة»(102) وهي ناحية اليمين، و«يجعل اليسرى تحت فخذه وساقه» (103)، و«ينصب اليمنى» (104)، وربما «فرشها»(105) أحيانا، ثم «يلقم كفه اليسرى ركبته، يتحامل عليها» (106).

ها أنت ذا الساعة قد استأنفت مقامك جالسا عند سيدك الكريم، بتشكيلة نبوية لأغصانك وجوارحك، ترحل في غمرة الأحوال والفيوضات الرحمانية؛ لتسامر ذا الجلال في خشوع، خفاق الجناح، تعظيما وتنزيها! ثم تشير بأصبعك إلى القبلة؛ لتوقد قنديل التشهد من جديد: تحيات وسلاما، وتوحيدا، فصلاة على النبي الحبيب صلى الله عليه وسلم.

الزيت نفسه هو هو، والقنديل نفسه هو هو، لكن النور أصفى وأبهى، والذوق أعذب وألذ! فإذا البصر يرى ما لم ير، والقلب يشهد ما لم يشهد: «ما ننسخ من آية أو ننسها نات بخير منها ، أو مثلها، ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير؟» (107) وإذا الأباريق تسكب في أكواب الشوق زلال النعمة، ورقراق النور، فلأغصانك أوراق وأزهار، تتجدد مع كل نفَس جديد. وسبابتك ما زالت تستزيد من جمال الله، حتى يمتلئ المكان مسكا وعنبرا.. «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم» (108).

فيا جوارح اخشعي، ويا خفقات تبتلي! ويا جفون انثري من دمعك الولهان سخين الجوى! فقد أشار المليك، وأزف الفراق! فالعياذَ العياذَ! بِحَرَم المجير الذي لا يضام جاره! فللطريق خارج حصون الصلاة مزالق ومكاره.

أرأيت النبي صلى الله عليه وسلم وسط أصحابه يرسم في الأرض بجمالية البيان؟ إذْ يفسر لهم آية من كتاب الله، فيخط خطا مستقيما، ويفرع عنه خطوطا إلى يمينه وشماله، ثم يقول: «ضرب الله تعالى مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تتعوجوا! وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب؛ قال: ويحك لا تفتحه! فإنك إن تفتحه تلجه! فالصراط: الإسلام. والسوران: حدود الله تعالى ، والأبواب المفتحة: محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوقُ: واعظ الله في قلب كل مسلم» (109)

فاستعذ بالله ياصاح متشهدا ، وحرك سبابتك خاشعا ، تدعو بها ، لتحصن عنقك بجواهر التشهد الثاني ، عقدا ربانيا يحجب عنك كل مكروه، ولتجعل أول دعائك كَلِماً نبويا ، ثم سل مولاك بعد ما تشاء:

ـ «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال!» (110) دعاء يستدفع به الشر كله؛ عياذا بحصون الحفيظ العليم ، القاهر فوق عباده!

فاعتصم بشراعه يا سالك عند كل تشهد آخر! فقد كان سراج الأمة محمد صلى الله عليه وسلم «يعلمه الصحابة رضي الله عنهم كما يعلمهم السورة من القرآن» (111) إذ يمد شعاع الهدى ساعيا بين أيديهم: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم..[إلخ]، ثم يدعو لنفسه بما بدا له» (112) بعد ذلك.

وتذكر جراحك وأحزانك، وحاجتك الآجلة والعاجلة؛ فتدعو.. وتذكر أحزان الأمة وجراحها، ومآتمها، وهوانها؛ فتدعو.. وتذكر المرابطين في الثغور صامتين، يألمون ما يألمون محتسبين؛ فتدعو.. وتذكر الفقراء والمستضعفين، والظالمين المستكبرين، وتذكر، وتذكر.. فتدعو، وتدعو، وتدعو..!

وما تزال تتشهد، مشيرا بسبابتك تدعو بها، جالسا جلسة الأصفياء عند الملك الكريم، وباب هباته مفتوح ينثر عليك من إنعامه بكل دعاء كرامات وحسنات!

فسبحانه وتعالى، وله الحمد والثناء، كما ينبغي لعظيم فضله وجمال إحسانه!

كان النور قد غمر جناحيك ريشة ريشة، فأشرقت روحك في هالة وهاجة الأريج، دفاقة العبير، ونَبْضُ قلبك يشع لؤلؤةً صافية الأديم، طاهرة الخواطر.

ويأذن الملك لعباده المخبتين بالانصراف جالسين متبتلين، وهو يغمرهم بأنوار الرضى والقبول؛ فيستشعر العبد حينئذ أطياف التوابين والمتطهرين، ممن يرى ومن لا يرى، جاثين حواليه، عن اليمين وعن الشمال، يتضرعون بين يدي التواب الرحيم، «ثم يسلم على أخيه من على يمينه وشماله» (113) ويلتفت بوجهه الأغر هادئا مطمئنا؛ كي «يسلم عن يمينه:

ـ السلام عليكم ورحمة الله!

حتى يُرى بياض خده الأيمن! ثم يسلم عن يساره:

ـ السلام عليكم ورحمة الله!

حتى يُرى بياض خده الأيسر!» (114)

* * *

وتفتح عينيك على عالم الأشباح والرسوم، فلا تبرح مكانك حتى تذكر ربك بُعَيْد الصلاة، جبرا لما ضاع لك منها في جيوب الشرود، وتسديدا لقلب مقبل على خوض أدخنة الحياة، بعد ما غاب عنها في حضورٍ حيٍّ مع الله، حضورٍ طوى في شهوده مقاييس الزمان والمكان!.. فتوكل على مولاك يا ذاكر! مسبحا، وحامدا، ومكبرا، ثم متشهدا! مسترشدا بهدي الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، إذا قال: «من سبح اللهَ في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، وحمد الله ثلاثا وثلاثين، وكبر الله ثلاثا وثلاثين، وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير؛ غُفرت خطاياه وإن كانت مثل زَبَد البحر!» (115)

ثم تنطلق بعدها خفيف الجناح، مشرق الروح، ثابت العزيمة، لتدخل غمار الحياة الأرضية بنشاط جديد، وعقلك شلال تتفجر طاقاته عند كل عمل، تصلح به معاشك، أو معادك، قوي الأمل في الله، لا تضع يدك على عود ذابل إلا ورَقَّ صلاحا بإذن الله، وأزهر بشائر بتوفيق الله، ولا تفتح بابا إلا انفتح عن رزق حسن وسلام من الله، ولا يضيق عليك درب إلا فُسحت لك ساحات ذات ضياء وظلال! «ومن يتق اللهَ يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب»(116).

وقد ينخسك الشيطان في طريقك، فتطرده قوي الجنان، عالي الهمة، فيفر منك مذعورا، ثم يعود، وأنت تعود! حتى إذا غُمَّ عليك تعبا من ضجيج الحياة؛ رجعت إلى سفارك الجميل، ومنتزهك البهيج، و...

وكنت على موعد جديد مع الله!

تلك الصلاة بنورها وبهائها: سفر في مقامات الكمال والجمال، وحركة للروح في هيآت ذات أحوال، ومشاهدات لفيوضات الأنس والرضى من ربك ذي الجلال..

تلك رياضة الأنبياء والصالحين، ومن اقتفى آثارهم من السالكين، رياضة تعمر القلب والجوارح، بالحب والعافية والسلام..!

هوامش الفصل الثالث

(1) ص: 23

(2) البقرة: 73

(3) التوبة: 13

(4) الحديد: 4-5

(5) الزمر: 72

(6) البقرة: 254

(7) رواه مسلم

(8) رواه أبو داود، والدارقطني، وأحمد والطبراني، والبيهقي. وصححه الألباني: (صفة: 138).

(9) رواه مسلم

(10) رواه النسائي بسند صحيح (صفة: 138)

(11) رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما (صفة: 133)

(12) رواه أبو داود والنسائي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (صفة: 133)

(13) رواه البخاري.

(14) رواه الطبراني في الكبير والصغير، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن ماجه. وصححه الألباني (صفة): 134.

(15) ص: 23-24.

(16) عن حذيفة قال: صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم» رواه مسلم.

(17) عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في ركوعه وسجوده: «سبوح قدوس رب الملائكة والروح».

(18) رواه مسلم.

(19) من ديوان المقامات للمؤلف: (مقام التهذيب والتصفية).

(20) الأنبياء: 86.

(21) رواه أبو داود، والنسائي بسند صحيح: (صفة: 138).

(22) متفق عليه.

(23) متفق عليه.

(24) رواه مسلم.

(25) متفق عليه

(26) متفق عليه.

(27) وكان صلى الله عليه وسلم بعد الرفع من الركوع «يقوم أحيانا حتى يقول القائل: قد نسي من طول ما يقوم!» متفق عليه.

(28) رواه البخاري.

(29) رواه مسلم.

(30) رواه مسلم.

(31) المدثر: 6

(32) العلق: 20

(33) مريم: 58

(34) رواه مسلم.

(35) أقل ما تقال (ثلاث مرات). وقد رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والدارقطني، والطحاوي، والبزار، والطبراني عن سبعة من الصحابة: (صفة): 153.

(36) رواه أبو داود والدارقطني وأحمد والطبراني والبيهقي، وصححه الألباني: (صفة: 154)

(37) رواه مسلم.

(38) رواه مسلم.

(39) رواه مسلم.

(40) النحل: 48

(41) الحج: 18

(42) مريم: 94-96.

(43) قَمَنٌ: جديرٌ وحقيقٌ.

(44) رواه مسلم.

(45) رواه مسلم.

(46) البقرة: 186.

(47) الإسراء: 107 إلى 110.

(48) رواه مسلم.

(49) الفتح: 29.

(50) الصُّبْرَةُ: مجمع للدواب، كالاصطبل.

(51) رواه أحمد بسند صحيح (صفة): 158.

(52) القلم: 42-43.

(53) رواه مسلم.

(54) العلق: 19.

(55) رواه البيهقي بسند صحيح (صفة: 148). وعبارة (وبسطهما) زيادة صحيحة عند أبي داود والحاكم: (صفة: 148).

(56) رواه البيهقي بسند صحيح: (صفة: 149)

(57) رواه البخاري.

(58) متفق عليه.

(59) طه: 13

(60) طه: 108.

(61) ق: 22

(62) القَزَعَةُ: غيمة خفيفة.

(63) متفق عليه

(64) متفق عليه.

(65) متفق عليه.

(66) متفق عليه.

(67) رواه البخاري.

(68) رواه النسائي بسند صحيح: (صفة: 161)

(69) رواه أبو داود والبيهقي بسند صحيح: (صفة: 162)

(70) متفق عليه

(71) متفق عليه.

(72) رواه مسلم.

(73) أخرجه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، قال: الألباني: «وهو كما قالا»: (الصحيحة: 541)

(74) النبأ: 38.

(75) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم، وصححه. ووافقه الذهبي: (صفة: 163)

(76) رواه ابن ماجه بسند حسن: (صفة: 163)

(77) الفتح: 29.

(78) رواه ابن أبي شيبة والطبراني والحاكم، وصححه. ووافقه الذهبي: (صفة: 135)

(79) يس: 37-39.

(80) رواه أبو داود والبيهقي بسند جيد (صفة: 167)

(81) رواه مسلم.

(82) رواه مسلم.

(83) رواه مسلم.

(84) رواه أبو داود والنسائي وابن الجارود وابن خزيمة وابن حبان بسند صحيح: (صفة: 169)

(85) رواه ابن أبي شيبة والنسائي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي: (صفة: 171)

(86) إبراهيم: 54.

(87) متفق عليه.

(88) متفق عليه.

(89) متفق عليه.

(90) متفق عليه.

(91) آل عمران: 31.

(92) الحديد: 27

(93) الأحزاب: 56.

(94) متفق عليه. وقد: «كان صلى الله عليه وسلم يصلي على نفسه في التشهد الأول وغيره» رواه أبو عوانة والنسائي. وهو مذهب الشافعي، وبعض الحنابلة، وهو اختيار الألباني: (صفة): 177.

(95) رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، وصححه الألباني: (ص.ج.ص) رقم: 2878.

(96) رواه مسلم.

(97) رواه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، والنسائي، والحاكم، وصححه الألباني: (ص.ج.ص) رقم: 6359.

(98) رواه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني: (ص.ج.ص) رقم: 3165.

(99) متفق عليه.

(100) رواه البخاري.

(101) الوَرِكُ: هو ما فوق الفخذ من جهة الدبر.

(102) رواه أبو داود، والبيهقي بسند صحيح: (صفة: 197)

(103) رواه مسلم.

(104) رواه البخاري.

(105) رواه مسلم.

(106) رواه مسلم.

(107) البقرة: 115.

(108) الحديد: 21.

(109) رواه أحمد، والحاكم وصححه الألباني في: (ص.ج.ص) رقم: 3887. وفي "مشكاة مصابيح السنة" رقم: 191. وراجعه بروايات أخرى في تفسير ابن كثير لقوله تعالى من سورة الأنعام: «وأنَّ هذا صراطي مستقيما...» الآية.

(110) رواه مسلم.

(111) رواه مسلم.

(112) رواه مسلم.

(113) رواه مسلم.

(114) رواه أبو داود والنسائي والترمذي، وصححه. (صفة): 204.

(115) رواه مسلم.

(116) الطلاق: 2-3.

الفصل الرابع:

* مطالع الكوكب الدري
* في منازل ناشئة الليل
* مع صفوف الملائكة
* بهجة الجمعة!

مطالع الكوكب الدري

يا أيها الفلك السيار عبر مواقيت الصلاة!.. هذه أزمنة التجلي في مدارك الفاني،

مطالع أنوار، تشرق على قلبك السالك بمقامات التحرر من معتقل العمر.. فتهبك أحوال ذوق لكوثر الحياة الفياض!

خمسة مطالع يا صاح، كافية لإمداد سمائك بتجليات من نور دري، لا تتوقف أنهاره أبدا!

فالبِدارَ البِدارَ يا سالك بأوقات المطالع! فقد جمعت كل الخير في تجليات الجمال، وما بقي بعدها إلا التيه في فيافي الضلال.. عجبا! وأي كوكب هذا الذي يرحل في مداره مجذوبا إلى جاذبيته، ثم يتخلف عن مطالعه؟ كيف وها «إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا»(1)؟

كان الوقت فكانت الصلاة!.. وإنما الوقت هو الصلاة.. فتأمل!

الإنسان.. هذا الجرم الكوني الصغير، كان المفروض فيه أن يدور بفَلَكه كسائر الأجرام السيارة في الكون طوعا لا كرها.. ولكن! لو كان يدري!.. إن هذه الآية العظيمة تضع الإنسان في مداره الطبيعي؛ ليسلك سبيله إلى ربه ذللا.. «إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا».. وما الإنسان إن لم يكن هو هذا العمر المحدود: بداية ونهاية، وبينهما يوجد شيء اسمه: الإنسان! فتأمل! وإنما الصلوات الخمس مواقيت لرموز التحولات الزمنية. فالفجر (بدء) وبه تبدأ الحياة.. وما بدأ شيء إلا لينتهي! والفجر اسم وقت قبل أن يكون اسم صلاة! لأننا إنما نعبد الله بالوقت.. وإنما الوقت هو الصلاة! لذلك كان المنادي الأول ينادي لتسجيل ميلاد اللحظة الأولى من لحظات النهار صلاةً لله رب العالمين الذي أنعم عليك بالبدء.. أنعم بالحياة! فاملأ رئتيك يا سالك بالنَّفَس الأول من صلاة الميلاد.. ميلاد الحياة. ويا لخيبة من نام عن شهود النبع الأول من عين الصفاء، فكرع من بعد الوقت ماء مسنونا!.. وهل يكرع الكارعون في آخر الماء إلا غسالة الأولين السابقين؟

ويدور الكوكب العابد في مداره هونا؛ حتى إذا توسطت الشمس كبد السماء؛ اشرأبت الأعناق لسماع المؤذن يعلن بدء الزوال، وانقلاب الظل إلى الجهة الأخرى.. زوال الشمس يا ولدي بداية العد العكسي في عمر الإنسان، فمذ دشن فجره وهو يعد عدا تصاعديا؛ حتى إذا زالت الشمس وامتد الظل قليلا إلى الجهة الأخرى بدأ الانحدار؛ ففرارا إلى الله إذن؛ تشهد منتصف عمرك صلاة ظهر، فما بقي أكثر مما سلخت من أنفاس! ذلك هو التحول الفلكي الثاني: محطة كبرى من محطات الزمن الأرضي، تشهدها عابدا، لا شاردا عن باب الله. حتى إذا صار الظل مثل طول كل قامة امتد عنها؛ بدأ العصر ينذر بقرب الأفول!.. وما العصر إلا إنذار لك يا سالك أنْ لم يبق لك من العمر إلا لحظات وتنتهي الأضواء إلى ظلمة القبر! ماذا أعددت لذلك البيت الموحش من مؤنسات؟ والعصر محطة فلكية أخرى، ينعصر فيها الزمن انعصارا؛ ليشهد تحول الإبراد إلى الأصيل.. ذلك آخر الزاد إذن من سبحات النهار، ليس بعدها إلا مسك الختام. ومن هنا النذير الشديد لمن غفل عن هذه الساعة الفاصلة!.. لحظة أو لحيظة ـ لا تدري كيف؟ ـ ويكون الغروب!.. هنالك تشهد كيف يموت الضوء.. بل كيف تموت الحياة! وتصلي.. وإنما المغرب غروب؛ تلك هي الحقيقة الأولى التي تنطق بها الفجر مذ تفجر عن أنواره لو تعلمون!.. فيا عبد! ما أخرك عن شهود حقيقتك؟ هذا الكون كله يغرب.. ولا عودة للحظة ماتت.. لا عودة لها أبدا! محطة فلكية من تحولات الأزمنة، تشهدها صلاة خاتمة للأضواء، وفاتحة للعتمات.. وما العشاء إلا عتمة! تدلج إلى الله بالعشاء صلاة سارية.. وإنما العشاء من العَشَا: حيث العتمة تمنع إبصار العين إلا قليلا..

تلك إذن هي الصلوات الخمس: أوقات للتحولات الفلكية الكبرى.. نعدها بالصلاة عدا..

ألم أقل لكم؟: كان الوقت فكانت الصلاة!.. وإنما الوقت هو الصلاة.. ولقد قلت لك يا ولدي... فتأمل!

وإنما الأوقات الخمس يا صاح رموز لليوم كله: فجرا، فظهرا، فعصرا فمغربا، فعشاء..! فماذا بقي بعد ذلك من الوقت إلا امتدادات لهذه أو تلك؟.. فالوقت كله إذن هو الصلاة!.. أنت تصلي الأوقات الخمسة إذن أنت تصلي العمرَ كله، قلت: كله! وإنما فرض الله الصلاة عمرا، لا حركة ولا سكنة إلا صلاة! ألم يفرضها عز وجل أول ما فرضها خمسين صلاة؟ ثم خففها إلى خمس، كل وقت منها ينوب عن عشرة أوقات! والحسنة

في ديننا بعشرة أمثالها.

أن تعبد الله بالوقت يعني أنك تعبده بمهجتك، وما المهجة إلا العمر، وما العمر إلا زمن، وما الزمن إلا أعوام، وما الأعوام إلا أشهر، وما الأشهر إلا أيام، وما الأيام إلا ساعات، وما الساعات إلا دقائق، وما الدقائق إلا ثوان...! فما عمرك يا ابن آدم؟

دقات قلب المرء قائلة له ✻✻✻ إن الحياة دقائق وثوان!

هكذا إذن: أن تعبد الله بالخمس فإنك تعبده بالعمر كله، تنثر مهجتك بين يديه تعالى وقتا وقتا، أو قل: نبضا نبضا، ما دام هذا الفلك يعبر العمر إلى ربه هونا..!

أما أن يفوتك وقت فيعنى أنك قد خرجت عن مدارك!.. فانظر أي حافة من الفراغ العاصف تنتظرك؟ وأي قوة بعد ذلك ستعود بك إلى هدوء المدار؟

أن يفوتك وقت: يعنى أنك فقدت جزءا من العمر، وفاقد الجزء فاقد للكل ضرورة!..

ومن ذا قدير على استعادة الزمن الراكض إلى وراء؟ ولقد قال الفقهاء لفعل الصلاة إذا كان في الوقت (أداء)؛ وإذا كان بعد الوقت (قضاء)؛ لأن الذي يقضي لا يؤدي أبدا.

هل يمكنك استعادة الوقت؟ هل يمكنك استعادة التاريخ؟ هل يمكنك أن تعيش اللحظة مرتين؟ ولقد صدقوا في الفلسفة القديمة إذ قالوا: (لا يمكنك أن تسبح في النهر مرتين!).. لو لم تكن الصلاة (وقتا)؛ لأمكنك أن تفعل ذلك على سبيل التشبيه والتقريب، أما وإنها وقت فإنك لن تفعل، وإنما الذي تفعله أنك (تعوض) تعويضا، وما كان العِوَضُ - بعذر أو بغير عذر - ليكون كالأصل أبدا..! لسبب بسيط: هو أن المسألة وقت! فانظر لو أنك لم تأكل طعام عشائك حتى كان الصباح.. ثم طلبته؛ أتكون حينئذ تتعشى أم تفطر؟.. طبعا إنك لن تتعشى عشاءك ذاك بعدُ أبدا..! ولو كان الطعام هو عين الطعام! لسبب بسيط: هو أن المسألة وقت!.. ولا صلاة تفوت فتؤدى بعد ذلك أبدا! وإنما فرصتك الوحيدة أن تقضي إن جاز لك قضاء.. وشتان شتان بين أداء وقضاء!

ألم أقل لكم؟: كان الوقت فكانت الصلاة!.. وإنما الوقت هو الصلاة.. ولقد قلت لك يا ولدي... فتأمل!

فابسط كفك حتى لا تنسى! ثم اعقد أصابعك الخمسة! الواحد تلو الآخر؛ لعد التجليات الوضاءة ربيعا ربيعا!

تجليات المطلع الأول:

هذا الحداء الهادئ، الصادر عن أول طيور السَّحَر، ينساب عذوبة وجمالا.. عبر نسيم مسكي الأريج!.. هل تشم شيئا؟.. وحدهم المحبون الآن يشمون؛ لأنهم وحدهم يقظون الساعة!.. مع آخر هديل الليل الساجي، يشهدون مولد النَّفَس الأول من وردة البكور!

....

من أديم السواد الغامق الجميل، تتشكل وريقات ذات إشعاع رمادي يفيض زرقة عميقة.. وتنمو الوردة متفتحة في خفاء، حتى يفيض قلبها النابض على الكون؛ بنور فضي كالبلور الصافي؛ إيذانا باقتراب وصول الخيول الأولى لموكب الشمس!

كان هذا الغصن السالك يبدو - في تجليات الزرقة الأولى - كشبح أدركه صبح السرى، على أعتاب ديار الحبيب.. وكان السكون رائقا ورائعا، ولكنه سكون يخفي شوقا قلقا، كان كأنما ينتظر شيئا.. وهو يشهد أفول آخر النجوم.. لحظة؛ ويتفجر سيل الحياة الفضي، المتفتق عن انفلاق الأذان؛ نهرا وضاء في غبش الوجود!

ويصدح الحمام الولهان، وَهْناً، بصوته الشجي:

- الصلاة خيرٌ من النوم!.. الصلاة خيرٌ من النوم!..

ويمضي النداء صدى متمددا في الفضاء، ينثر الخير حول خيام المدلجين..

✻ ✻ ✻

كانت الدوالي متشابكة في خمائل من نور، وهي تعانق بأجنحتها الأرضية أجنحة السماء؛ احتفالا بقرآن الفجر، فاشهدي يا خوافق السالكين؛ جمالية البكور الأولى «إنّ قرآن الفجر كان مشهودا» (2)

هذا أوان البهجة العلوية، في صفاء النور الملائكي، فزاحمي يا ضلوع المحبين قناديل السماء! وهي تغمر الصفوف بأنس الربيع، فتتفتح القلوب أحوالا، تدر جداول الصدق واليقين..!

هنا صلاة الفجر، فاملأ كأسك ياصاح، بترياق الشهد المشهود!..

كان أبو هريرة رضي الله عنه فاتحا قلبه وبصره، وهو يصغي لخرير النور يترقرق من مشكاة النبوة؛ فيغمر المسجد بأفئدة ينبض زيتها خوفا ورجاء!.. ثم ينثر الصحابي الجليل جواهر الدر؛ أشعة تعبر الأجيال:

- «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «... وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر»ثم يقول أبو هريرة: «فاقرؤوا إن شئتم: «إن قرآن الفجر كان مشهوداً»(3) فواحسرتا عليك أيها الطين الخامل في نتونة العلق الغافي! كيف تبالغ في قتل حياتك بنفي الأنفاس عن طلائع الفجر، الريانة بمدائح الطير، الصادحة من مشارف الشلال الرباني؟.. فتغيب،آه! وتغيب عنك الحياة! ولم يأت قط من أتى بعد فوات الأوان! فعلى أي جنب تنام بعد ذلك أيها الانسان؟

نعم!«ولو يعلمون ما في العتمة، والصبح؛ لأتوهما ولو حبوا!»(4)

- كيف ذلك يا رسول الله؟

- «من صلى الصبح فهو في ذمة الله!..فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء! فإنه من يطلبه من ذمته بشيء؛ يدركه، ثم يكبه على وجهه في نار جهنم!!» (5)

ألا فاغمري نوحك ياحمامة القلب شجى وشجنا! وانشري روحك أنفاسا فجرية اللون بين يدي مولاك! فرقا أن يغمر سيل الطين آذان الأغصان الوسنى، فيمر أريج الحياة وهي غائبة،في غيابات اللحظة الموات!

وللتجليات الأولى من مطلع الفلق البهيج؛ ضفتان من ضفاف الزمن الأرضي، من استفتح الصلاة بينهما ولج إلى زمن الغيب الثر، فنال من عطاء ربه سر الحياة يومه كاملا..فاغمر الخطوات إلى صلاة الصبح ياصاح، بخفقات القلب الفواحة أنسا ورجاء! تنل من فيض المولى كرامات الصالحين، وأي كرامة أعظم من إحياء ما قد فات؟ أوَليس «من صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله» (6)؟ فأي كوكب هذا الذي ينسى استدرار نورالله، لحظة المطلع الأول، بمداره السالك إلى المولى الكريم؟ إذن؛ يقضي أبده في ظلمات اليوم الرهيب! فأوقد مصابيحك فجرا! يا أيها الطير المتبتل خوفا وطمعا، إن الحبيب محمدا وعدك بشائر أنوار كاملة الجمال، واردها من زيت الخطوات المدلجة إلى الصلاة.. الخطوات الخافقات شرحا، الموريات قدحا، يتفتق بهجة وسرورا يملآن عليك المكان والزمان. فاغرف من بشائر النبوة: أنْ «بشر المشائين في الظلم إلى المساجد، بالنور التام يوم القيامة!» (7) فسابق ظلالك يا غصن إلى مقام النور! فإنه ليس دون البشارة إلا الخسارة! فالجمال السرمدي بابه قوس بارقة في ظلمة مختصرة، لا يستثقلها إلا من غفا عن هميان البشائر النبوية فضاع في التيه! و«ليس صلاة أثقل

على المنافقين من صلاة الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوها ولو حبوا!» (8)

كذا إذن؟ فصلاة الله وسلامه عليك يا رسول الله!

ركعتان من القرآن الصادح تفريدا أو تغريدا، بعد ركعتي نافلة كافية لإمداد جناحك يا ولدي بمقام البسط، غدوتك كلها..! فاجن ما تشاء من زاد في حدائق الله الفسيحة! وارتق أغصان النور مرتلا تزدد قربا! فهذا مقام تطول فيه القراءة. حتى إذا أسفرت السماء عن ضياء النهار؛ كنت جاهزا لخوض غمار الحياة، بجناح ملؤه العزم القوي، والأمل الكبير!

* * *

تجليات المطلع الثاني:

ها أنت ذا بعد غدوة لاهثة في معترك الحياة؛ تؤوب إلى الظل في الظهيرة.. وقد علا أجنحتك الغبار، تتنفس فتنبعث من حولك رائحة الحرائق، مما خالطت في هذه الغداة، من أعمال ذات شغب، وأموال ذات لهب، كم كنت تتقي ألسنتها يا عامل، وأنت تركض بفرسك بين جيوشها، وما كان فرسك مهرا! ولا ربه غمرا، ولكن لكل جواد كبوة، ولكل فارس هفوة!.

فتعود جريح القلب، ثقيل الجناح، إلى ظل الهجيرة، تبحث عن جرعة ماء؛ لاستئناف المعركة من جديد! فيومك لما ينته بعد، والمدافعة ما تزال حامية الوطيس!«ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض!» (9).. وينتشلك الأذان من حيرتك.. كان النداء ينبعث من شلال صافي الأمواج، فتحط بجناحك على غصنك المرهق، وتدخل في موجة الشلال.. كان الوضوء إحياء جديدا لأنفاسك الحرى، حتى إذا أكملت تلميع غرتك وتحجيلك؛ تفتحت الأزهار من أفنانك طيبة الريح.. وهب الشوق بقلبك مندفعا إلى لقاء الحبيب!

الشمس الآن تزول عن وسط السماء قليلا.. مؤذنة بموعد التجلي الثاني.. فتتحرك الطيور في الهاجرة، مرسلة أجنحتها وهي تقطر بماء الوضوء، تحت أشعة الشمس الحارة.. كانت أشواقها تملأ عليها كيانها، فما عاد فيها عرق يشعر بلسعات قيظ الهجير.. وللوضوء رشح على الأغصان بردا وسلاما.. وتخفق الأجنحة مُهَجِّرَةً إلى صلاة الظهر..!

ألا تعسا لك أيها الجناح الخاضع في ظلك! ترزح بترابك بعيدا عن كوثر الصلاة! تملأ بطنك بطعام ثقيل، وتخدر خشبتك بنوم ثقيل.. فتركن بعد هاجرتك إلى حزب الشيطان، تأكل من ماله لهباً ودخانا!!

يا لأجنحة ضلت طريقها إلى قوتها! فلم ترحل إلى استدرار النور ساعة الهداية.. وللتهجير أحوال وأذواق تفتح للبصر المرهف أقواس الآفاق؛ فيولد الربيع بالغصن السقيم من جديد!

آه يا صاح! «ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه!» (10)

ألا ما أحوجك الساعة يا سالك إلى لحظة وصال أبدية! تستمد فيها القوة لخوض غمار الحياة، من تجليات الملك اللطيف، على فؤادك الضعيف!.. غداةٌ واحدة تضرب في عمق اللهب والدخان كافية لإتلاف ما رشح من ندى ساعة الفجر، على أوراق غصنك العابد..! فيا عبد عد إلى مولاك! فأقواس الصلاة قناديل تشرق على آفاقها، ربيعا لا يفنى أبدا..!

ولصلاة الظهر جمال الرشفة الثانية من كوثر النور.. تعود إذن والعود أحمد، تعود والحنين يملؤك إلى ما عرفت، لا إلى ما لم تعرف؛ وإلى ما ذقت، لا إلى ما لم تذق، لكن بحالٍ غير الحال، وبوجد غير الوجد، ولكل يوم ملف وحساب! وقد كانت صلاة الفجر محطة انطلاق للجناح الراجي فضل مولاه، حتى إذا عرك ما عرك، وخاض ما خاض، عاد في الظهيرة يابس العود، يرجو رحمة مولاه!

هذا صدر النهار، فاجعل من صلاتك يا عابد أربعة معارج! تبث فيها حزنك وشكواك إلى الله سرا، فالسفار أمامك يبسط عواصفه من كل جهاتك الأربع، فطهر ثيابك بالنور التام تطهيرا! عسى أن تكمل السير سليما إلى واحة الله!

وتفتح قوس الصلاة؛ فتشرق التجليات من جديد، ويشب البهاء في ومضة الكوكب الدري، عند مطلعه الجديد!

كان لقاؤك بربك في واحة الظهيرة فرصة ثانية؛ لاستدرار أنوار التأييد والتسديد، تضمد بها الجراح، وتتزود لغوائل ما بقي من عراك، فادخل أعتاب الرحمة يا ولدي! وارقَ إلى مقام الفقر! مستنصرا بالله، الملك الرزاق ذي القوة المتين، عبر أربع ركعات كاملات، عسى أن تستكفي بهن لاستدراك ما فات، والتأهب لما هو آت!

* * *

تجليات المطلع الثالث:

الشمس الآن تنحني في الفضاء راكعة، فتنتشر الظلال مسبحة في كل مكان، فلكل غصن أو طلل ظلٌّ في الأرض، طوله مثله وزيادة، حتى الأعشاب الصغيرة بسطت على المراعي نقوشا من لون الهدوء.. لكنك وحدك يا سالك ما زلت تضرب في صخب الحياة، وتدافع أدخنة اللهيب، حتى إذا غار نبع المعين المستسقى من صلاة الظهر؛ وغيضَ مَدَدُهُ بقلبك؛ أحسست بأبخرة العطش اللاهب تصاعد من فؤادك.. فتتطلع بعينيك الداعيتين إلى السماء.. وينهمر الأذان من جديد..!

كان الكوكب يتحرك هذه المرة بصعوبة، فأدخنة الأسواق قد كثفت، وأثقلت فضاء المدار، فحاصرت بجحافلها أجنحة المحبين!

هذا وقت يشتعل فيه وطيس المال والأعمال. فلكل دقيقة وزن ساعة من زمن الغداة..! وللشمس اعتصار في وهج العصر، تذوب منه قطرة قطرة حتى تفنى في الغروب.. إغفاءة واحدة منك يا سالك بعد الأذان؛ ويكون نهارك قد مات!!

فألق ما في يدك!.. وانفض بنانك من رماد الحياة الفانية! وادخل شلال الفلاح! فالكون كله يصدح الساعة: أن حي على الفلاح! حي على الفلاح! وترشك بيانات النبوة رشا مباركا، يبعث الحياة في النَّفَس الجاف:

- «إن هذه الصلاة [يعني صلاة العصر] عُرِضَتْ على من كان قبلكم، فضيعوها! فمن حافظ عليها كان له أجره مرتين، ولا صلاة بعدها حتى يطلع الشاهد!» (11) وهو أول نجم يبزغ بُعَيْدَ الغروب، يشهد موت النهار وأول ميلاد الليل!

أجيال من الأمم قبل هذه الأمة كانت تقيم الصلاة، أغواها الشيطان فأغفت لدى بارقة العصر، فضلت قوافلها السبيل!

وللعصر احتفال الفجر الملائكي، فواحسرة على من فاتته فتوحات النور! ألا أيتها الأغصان العجفاء! أورقي لبهجة الأوراد القرآنية أنداء وريحانا! فإنه «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر، وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم - وهو أعلم بهم -: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون» (12). فيا أيها الباني حصن الزخرف من

خفقات العمر الفاني! لك اللحظة أن تخلد البناء، أو تنسفه نسفا! فوقفة خاشعة بين يدي المولى عز وجل، من قبل الغروب، هي فاتحة الخلود. وأما «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله!» (13)

أوَ تنسى؟.. عجبا! وأي عين هذه التي تغفو؟ وأي ذاكرة هذه التي تشرد؟ وها «الذي تفوته صلاة العصر، فكأنما وُتِرَ أهله وماله!!» (14) ألا يا طير جرد فؤادك من دخن التراب! وانفض جناحك من غبار الغفلة! وارحل إلى مولاك!.. هذا زادك قد نفد، والطريق أمامك قفار!.. والمولى يدعوك الساعة إلى مائدة تدلت أغصانها دانية القطاف: عناقيد سيالة، تروي بنورها الرقراق حشا الفؤاد اللاهث، في قيظ النوى والسراب! فارو حدائقك أنسا يا ولدي، قبل بكاء الأصيل..!

هذا باب الوصول الخفي، تفضي المناجاة فيه سرا ـ عبر أربع ركعات ـ إلى آخر درجة من معراج النهار، بدءا بالفجر حتى صلاة العصر، فإذا بك ساجد لدى الأعتاب العليا، تنهل ببصرك من جمال الله، لا تضام في وصال المحبوب شيئا..!

كان جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه، ينثر أزهار المحبة على طريق الله، بين يدي السالكين وهو يقول:

ـ «كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال:

ـ إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها فافعلوا!»(15).. وتومض في القلب السائر بشارتان:

الجنة؛ ولقاء الملك الكريم!

هنا صلاة العصر! هنا واسطة العقد الدري، ساعة الاكتمال البدري عبر طول المدار.. فارشف كأسك يا عابد وذق ما صلاة العصر! ثم اركب جناحك، ودر عبر مواجيد العمر؛ قائما في صفوف السالكين، قانتا لله رب العالمين، وادخل فضاء الربيع مرتلا: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى، وقوموا لله قانتين!» (16)

❊ ❊ ❊

تجليات المطلع الرابع:

... ويطلع الشاهد في السماء، نجما فضي النبضات، كانت الشمس قد توارت بالحجاب، فأقفلت أسراب الطيور رائحة إلى أوكارها.. وقد سالت أنداء الشفق الغارب على أجنحتها، طهورا غيبي المذاق! يفتح نظر القلب مباشرة على عالم الآخرة!.. كل شيء يرحل في هذا الوجود؛ فلا غدوة بغير رواح!.. كان النهار عمرا مصغرا بكل مراحله مذ تفتق برعما فجري اللون؛ حتى شب، ثم شاخ.. فمات!

وتؤوب إلى ذاتك بعد سكون عاصفة النهار الصاخبة، تجر جناحك المتعب، وتصغي إلى شجا قلبك، وهو يودع ورقة من أوراق غصنه المعدودة؛ بخفقات تذوب تترى في الشفق الحزين!

كان الأذان نسيما طيبا، يحدو الفؤاد الجريح إلى رَوْح الله، فيمتلئ الغصن ندى من رشحه الكريم، ويهتز أملا وشوقا إلى عفوه الحليم، ألا و«إنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون!» (17) فتشعر بالراحة تنساب خفة وطمأنينة بين جناحيك، وتنطلق الحناجر مغردة في سيرها؛ بدعاء المساء، تدعو منيبة إلى الله:

«أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.» (18).. ففرارا يا قلب إلى الحي القيوم، الملك الذي لا يزول!.. وادخل على مولاك ممسيا، من باب صلاة خاتمة النهار وفاتحة الليل!..

هذه هي اللحظة الفاصلة بين عالمين، لكل عالم منهما أحواله، وتجلياته، وأذواقه..

الغروب: لحظة لها ما لها في مواجيد العبد السالك.. فكيف أنت إذ تنثر دمعتَيْ فراق ولقاء، على صفحات عمرك الراحل؟.. إذ توقد بهجة المغرب محتفلا في خوف ورجاء، فتتميز اللحظة بصلاتها الثلاثية، تختم بها مدارج الفضاء النهاري لتفتح مدارج فضاء آخر، من جهة مدارك الثانية. فاختم يا عبد موترا بصلاتك، فإنما جعل الوتر خاتمًا، و«صلاة المغرب وتر النهار» (19). وإن عملا لا ختم عليه؛ لهو أبتر..!

ـ الله أكبر!.. ويصدح الطير بالقرآن جهرا، وهو يرسم للملأ حقيقة الكون الغاربة أيان مرساها!.. فتحلق الأسراب وهي تجأر إلى مولاها، عسى أن تستنير برضى وجهه الكريم، والكون يتحول من مشرقه إلى مغربه؛ تنبيها للغافلين! فتأفل أجرام، وتبرز

أخرى.. ولكل شروق غروب. وإنما الباقي هو رب المشارق والمغارب! «ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله، إن الله واسع عليم!» (20)

ويوقد العبد قنديل الصلاة؛ محتفلا بأنوار الله، وتبقى أجنحة أخرى ـ ظلت تعبد أشعة الشمس ـ في لهب المال والأعمال بغير أنيس، فتبيت حائرة في ظلمات التيه!.. وللمحب صوت شجي يتدفق بالقرآن، فتنتشر الهداية أنوارا.. تدعو الحائرين إلى الله: هذا نهارك قد أفل، يا أيها الجناح الشارد! وما يدريك؟ لعل الدور عليك! بل من عودك الفاني هو قد انصرم! فاسلك فضاء الأجنحة الآئبة إلى الله قبل فوات الأوان! واشهد مع العبد المهتدي توبة الغروب الندية! «فلما رأى الشمس بازغة قال: هذا ربي هذا أكبر! فلما أفلت قال: يا قوم إني بريء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض، حنيفا وما أنا من المشركين» (21)

ويدلج المحبون إلى الله، تحفهم قناديل الأنس، ويحدوهم جمال الرجاء!

* * *

تجليات المطلع الخامس:

الآن يطفو سواد الليل الساجي على آخر آثار النهار، فيمحو الشفق الدامع على المغارب، ويزرع نجوما درية الوميض، ثم يبدأ احتفال السالكين بانطلاق لحظة السُّرَى..

كان الليل قد سكن، وآوت الأنفاس إلى كهوفها، وانقطعت أصداء الضفادع إلا قليلا.. وللأجساد الساعة ارتخاء على أرائك الراحة، من بعد ما مسها من لغوب النهار، تترقب عشاء ساخنا، أو تنثر ثرثرتها في سمر المتعبين، أو تتملى أخبار الدنيا من شاشة أو مذياع، في كسل يعتقل أجفانها الذابلة شيئا فشيئا؛ حتى تستسلم لمنامها!.. فأيّ نداء هذا الذي يمكن أن ينهضها الآن؟

وتغوص في ذاتك يا عبد؛ في ارتقاب الصلاة، مسترجعا صور المعارك من الغداة إلى المساء، تقف عند هفوات القلب، وكبوات الخطى، وتحس بالأدران تثقل جناحك، وتعلو سعفك الساكن، فتتوق إلى شلال الرحمة، ورشحات الغفران.. حتى إذا غمر الأذان دلجة السالكين بنوره؛ قمت تلتمس بشائر الحبيب، المتجلية على قلوب المحبين، في عتمات الطريق.. فتنهمر الكلمات على غصنك برشاش من نشاط الروح أنْ

كانت الأغصان قد استراحت إلى جذوعها، فذاقت طعم الاسترخاء بما علاها من غبار، ولكن يأبى عليها الله إلا أن تنام طاهرة الزهور، ريانة العروق، ندية الأفنان، فيلاحقها صدى التذكير بالحقيقة العميقة، مخرجا إياها من دلجة اللحظة؛ إلى فضاء النور الضارب في أعماق الكون:

ـ الله أكبر..! الله أكبر..!

وتتواتر صور الحقيقة في نشيد الأتقياء.. ثم يبادر المقربون بترك الأوكار، ونفض السمر.. وتنساب الأسراب إلى الصلاة من جديد..!

وإنما وقت التجلي الخامس، في مدار العبد السالك، هو عمق الليل الساجي. يبدأ منه عفو الله بعد مغيب الشفق، ويكتمل منه فضله ورضوانه عند ثلث الليل الأول، أو نصفه. وللحبيب المصطفى إشارة علم للمحبين. قال الصحابي الخدوم أنس بن مالك رضي الله عنه: «أخّر النبي صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء إلى نصف الليل، ثم صلى، ثم قال:

ـ صلى الناس وناموا!.. أما إنكم في صلاة ما انتظرتموها!

ـ قال أنس: كأني أنظر إلى وبيص خاتمه ليلتئذ!» (23).

فللذكرى الطيبة ارتسام في القلب لدى العبد المحب، حتى بريق الخاتم في يده عليه الصلاة والسلام! وكيف لا وهذا المشوق يملأ عينيه من أنوار رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتلقى منه كلمات النبوة الطاهرة بكل جوارحه..؟

وينشر المصطفى صلى الله عليه وسلم، حكمة الخير نجما دريا، يضيء إلى يوم القيامة؛ هداية للمتبتلين: «لولا أن أشق على أمتي؛ لأمرتهم أن يؤخروا العشاء إلى ثلث الليل، أو نصفه!» (24)

ـ فما سر ذلك يا رسول الله؟

ـ لأنكم «قد فضلتم بها على سائر الأمم، ولم تصلها أمة قبلكم!» (25).. يا لجمال التفرد في عبادة الملك الودود! ويا لكرم تفضيله لأمة الغرّ المُحجّلين! فانهل من جدوال إحسانه يا صاح أنوارا يتيمة المنابع! واسجد لمولاك في غسق الليل شاكرا لأنعمه!

ولصلاة العشاء تجليات الصفاء، وأريج الأتقياء، في معارج النور المنسابة عبر سكون المحبة، وريحان الشهادة، إلى مقام الصديقين، عند الملك القدوس السلام!

«بشّر المشائين في الظُّلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة!» (22).

كل الزهور تقبض أنفاسها ليلا؛ إلا شجر (مسك الليل) ـ أي الليلك ـ فهو وحده يبسط أزهاره الندية، ويرسل الأريج إلى كل مكان..! ويصنع من اللحظة الداجية حفلة من أنوار الطيب! تجول بمواكب المحبين في مملكة الله، عبر رحلة ليلية الجمال، ملائكية الحداء؛ لاكتشاف كنوز الرحمن، بسامر الجلال! تلك كأس لا يتاح ارتشافها إلا بدلجتين: الفجر والعشاء! و«إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر! ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا!» (26)

هنا مطلع الكوكب الدري: ميلاد عُمران الروح في غفلة اللحظة الصاخبة، فَلَكَ الساعة يا صاح أن تنال من أنوار السكون، بعتمة العشاء، أمواجا من وميض المعرفة بالله، لها على القلب وقع القرَب، بال صخب ولا جَلَب! فاحرص يا ولدي على دخولها مع سرب الأجنحة، المنتظمة جماعة في عِقْد الدر الملائكي؛ تنل من وهج ناشئة الليل مصباح القانتين! أوَ ليس «من صلى العشاء في جماعة؛ فكأنما قام نصف الليل!»؟(27) ففَجِّرْ أيها المحب عيون الكوثر أربع ركعات، عبقات من أريج الجنة! تغرف في الأوليَيْن ما تشاء من رقراق الترتيل جهرا، حتى تمتلئ حدائقك بربيع القرآن! ثم تسكن في الآخرتين؛ لتتأمل الجمال في عطاء الله، وفيضه البهي، مناجيا إياه في خشوع الشاكرين.

ذلك شلال الليل الوضاء، فكيف تنام يا غصن مثقلا بأدرانك دون تطهر؟ ولا تستدر تجليات النور!

❊ ❊ ❊

ألا أيها الجناح الراحل بمدار التعبد! تلك مطالع الكوكب الدري الخمسة، تجليات المدد الإلهي، بين ساعات الليل والنهار، عبر مواقيت متوازنة الفواصل، لإمداد غصنك السالك بأنداء الروح، عسى أن تنجو رياحينك من أدخنة الفحشاء والمنكر، وتبقى محفوظة بين أجنحة الملائكة الطاهرة، فوقت حركاتك يا ولدي كلها على وزان المطالع الدرية! وليبتهج قلبك باحتفالات الصلاة! «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ما تصنعون!» (28)

في منازل ناشئة الليل

كان الكرى قد أكمل طوفته على جفون الزهور.. والنوم ياصاح موت عجيب، فكل الغصون الساعة قد مالت نحو الثرى خاملة الأوراق،وإنك لتحتار من أمر هذه الأجساد الصريعة: أين رحلت أرواحها ؟فلها في النهار صخب ونصب، وهم واهتمام، وكر وفر، وحرب وسباق... ثم ها هي الساعة تتمدد مستسلمة لخالقها الذي «لاإله إلا هو،الحي القيوم،لاتأخذه سنة ولا نوم» (29)

فالملك لله الواحد القهار!

حتى إذاكان جوف الليل.. وهبت أنسام الخوف والرجاء على الحدائق الغافية؛ اضطربت غصون، وتفتحت زهور، وباتت أغلب الأخشاب خامدة الأنفاس، تضرب في خريف الشعور!.. فإنما شهداء اللحظة اليتيمة من منابع الربيع هم القليل.. أما الوقت ياولدي فوقت سري!

... هادئا كالنسيم ينفتح الآن باب المعراج الخفي إلى الله: فترى مدارج معشبة بالنوافل الخالصة يلجها المحبون فرادى فرادى.. تلك غصونٌ سقيت من جداول اليقين. وأنى لمن أيقن بالموت أن ينام؟ وأنى لمن أيقن بالجنة والنار أن يأمن؟ وإنما الخوف طِيب من زهور المخبتين، الذين «تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يدعون ربهم خوفا وطمعا» (30). حتى إذا غفوا «كانوا قليلا من الليل ما يهجعون» (31). ولليقين رشفات تنقل العبد إلى منزلة المشاهدة: فإذا دوحة العمر أغصان تنثر أوراقها تترى، بين إشراق وغروب، والساعةَ كلُّ الخفقات تشتد؛ تأهبا لوداع نفَس جديد مع استقبال فجر جديد! وتمضي الأرض في مدارها، فما هي إلا لحظات؛ وتتبخر أنداء الغصن في اتجاه السماء! ويحك يا صاح! أي ركون بليد هذا الذي يشدك إلى خمول التراب؟ وللزهور العارفة دموع خوف ورجاء، بدلجة السحر الجميل. فأدلجي يا غصون المحبة! إن من أحب رجا، ومن رجا خاف ألا يبلغ، و«من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية! ألا إن سلعة الله الجنة!» (32).

ولناشئة الليل قناديل تنبض بنورأخضر،يمده زيت الحذر من وعيد الله، فتبتهج الدوالي حزنا وفرحا، وتنشط الخفاف سيرا إلى الله؛ قياما وسجودا.. ذلك فصل خارج فصول المدار، ومطلع من غير المطالع الخمسة، له إشراق ربيعي، وأريج من كثبان

الجنة المعشبة مسكا وريحانا ،فارشف ياسالك! هذه هي كأس العارفين بالله، العالمين بقدره «أم مّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما ، يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ إنما يتذكر أولو الألباب!»(33).

مطالعك الخمسة ياعبد، هي ينبوع النور في طريقك يوم القيامة فامدد مشكاتها بزيت الليل الصافي! عسى ألا يخبو نورك في ظلمات القبر الموحشة،ولا يرحل ربيعك في خريف الحساب الرهيب، فاصقل مصابيح القلب بنافلة الليل! «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة، فإن صلحت، فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، وإن انتقص من فريضة، قال الرب: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك» (34).

وللنافلة جمال الرشفة الباردة من كوثر الرحمة، تتنزل بردا وسلاما على حشا العطشان! الصريع بسراب السير اللافح.. فأكرم بها من لحظة! يغرس فيها العبد عودا أخضر، ليورق هداية ورشدا في الطريق الى منابع النور العظيمة. وقف الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم متفكرا على شفير قبر،فأحب أن يسكب من وهج مواجيدة في قلوب أصحابه فقال:

ـ «من صاحب هذا القبر؟

ـ فقالوا: فلان!

ـ فقال: ركعتان خفيفتان بما تحقرون وتنفلون، يزيدهما هذا في عمله أحب إليه من بقية دنياكم!» (35).

تلك إذن حقيقة الحياة: أرض خصبة وماء فرات، ولكن أين الزارعون؟ آه يا قلب،حتى متى وأنت معجب بأوراق غصنك الزاهية؟ وعاصفة الخريف على أبواب حدائقك الخاملة تعصف من قريب! فرش خمائلك الوسنى برذاذ السحر الوضاء! فإنما «أفضل الصلاة بعد المكتوبة: الصلاة في جوف الليل»!(36).

هذه رياح الشوق تطرد النوم عن عيون المحبين،طمعا في إدراك اللحظة البارقة، فتجذب قلوب القانتين؛ قياما إلى مقام الجوار الأقرب..عجبا! كيف تستجيب الأجنحة إلى النداء ولا أذان؟.. وإنما هو صدى الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يدعو السالكين إلى باب الله، همسا رفيقا في أذن الامة،الممتدة عبر هذا الزمان،فينقدح النور في قلوب المخلصين،فإذا هم أيقاظ من بعد رقود! ولبهجة اللحظة سر في الفؤاد، ما

يزال يجد طيب المحبة من كلمات النبي محمد صلى الله عليه وسلم: «أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر،فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن!» (37)

ـ وما سر جمال اللحظة يا رسول الله ؟

ـ «ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة، حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول: أنا الملك،من ذا الذي يدعوني فأستجيب له ؟من ذا الذي يسألني فأعطيه ؟من ذا الذي يستغفرني،فأغفر له ؟فلا يزال كذ لك حتى يضيء الفجر!» (38)

وتنطلق حركات أولي العزم، من الطيور المشوقة بجمال الله،ترسم انحناءات التعبد ركوعا وسجودا ،انحناءات ذات هالات من نور،تومض في سواد الليل البهيم: هنا توزع العطايا الرحمانية على العباد ، شهداء الفيض العظيم؛ غُرَفاً في قصور الجنة العليا! و«إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم،كما تراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق،من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم!»(39) فأي رفعة هذه وأي بهاء؟ فارحل أيهاالجناح البائس إلى جوف الليل الآخر! واملأه تغريدا!هذا مقام الشهود «لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» (40) فاشهد تجليات الصفاء الكامل! وأنشىء براعمك الخفية بناشئة الليل! «إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا!» (41)

فالملك الديان الآن، قد فتح حجاب البصائر المشفقة من خطاياها ، فمدت أغصانها تجأر إلى مولاها ،ترتيلا وتسبيحا ،حتى تفتحت مدامعها في سكون الليل الساجي الرطبة أزهارا!ما كان لها أن تتبرعم أبدا في ضوء النهار ونفاقه!فنثرت بين يدي الرحمن أنداء صافية القطر،لم يشبها دخن ولا غبار..فكان الفيض الإلهي أكرم وأجمل.وفضل الله بحر أحاط الزمان والمكان،وللنافلة منه الآن جداول عز نظيرها!فاركض نحو مولاك يا أيها الغابر في غيابات العدم!وافتح أقواس السحر دعاء ليليا ، خفيف الجناح،عليه حلاوة الصدق وجمال الخشوع،وبهاء النبوة:

ـ «اللهم لك الحمد! أنت نور السموات والأرض،ولك الحمد،أنت قيام السموات والأرض،ولك الحمد ، أنت رب السموات والأرض ومن فيهن،أنت الحق،وقولك الحق،ولقاؤك حق،والجنة حق،والنار حق، والساعة حق،اللهم لك أسلمت،وبك آمنت

وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت،فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وأعلنت،أنت إلهي لا إله إلا أنت!» (42)

كانت الملا ئكة تحف ببهائها غصن النور المياد سجودا وركوعا؛ فيبتهج الأنس هالة وضاءة بآخر الليل، وينشط السرى... فلم لا تصحب الملائكة يا صاح إلى باب الرحمن؟ أوليست «صلاة آخر الليل مشهودة» (43)؟.. بلى! والذي نفسي بيده!.. وإن الملك القدوس ليشرفها بتجليه العظيم! فتومض الأفنان في حدائقك جمالا وبهاء!

فيا أيها العبد المثقل بأدران الخطايا! مد جناحك إلى شلال السحر المستدفئ بنور الله!فما أسرع انتثار الذنوب عند القيام بين يدي الملك السلام والناس نيام! وافتح ليلتك الخضراء وحدك! فإنما جمال النافلة ـ على عكس الفريضة تماما ـ تفيض هالته بهاء وحسنا، في محراب الخلوة الساكنة، حيث تصفو المدامع من روائح الصلصال، وتزكو بريحان الروح المخلصة لمولاها، إخلاصا لا تفضحه عيون النهار، ذلك أن «صلاة الرجل تطوعا حيث لا يراه الناس؛ تعدل صلاته على أعين الناس خمسا وعشرين!»(44).

هنا يخرق الدعاء حجب السماء!.. هنا تفيض النفس الكئيبة، تنفث غيومَ الأحزان والأشجان؛ فتضيء بوارقها آفاقها الساكنة.. وينهمر الغيث في سكون! ثم.. ثم يمدك الرحمن بلطفه العظيم:

ـ «من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟.. فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر!»(45).. فيا أيها العبد العليل! هذا مستشفى الرحمن من أدواء النفس والبدن، افتحْ بوابة الليل الأخيرة! واسجد؛ تنل من بركات السماء ما لا يعلمه أطباء التراب!.. هذه وصايا النبوة الطاهرة، لافتة فوق عتبة الليل، تبشر السراة إلى رحمة الله بالدواء الناجع بإذن الله:

ـ «عليكم بقيام الليل! فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، **ومَطْرَدَةٌ للداء عن الجسد!**» (46)

فاخشعي يا حناجر الطير السارية تغريدا بِسَحَر! هذا ملك الملوك يسمع حداء الفقراء، بقافلة المحبين، فاجعلي من صوتك نغما خاشعا لله! فسيل النور مقام يسري بين الجهر والسر، فيزداد الترتيل جمالا وحسنا: «ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلا»(47). فيا أيها الفتى المحب! تأدب بأدب النبوة في محراب التهجد! وصل

ما استطعت! ركعتين؛ ركعتين، فإن «صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خفت الصبح فأوتر بواحدة!»(48) و«الوتر ركعة من آخر الليل»(49). وقد كان دليل السالكين، الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يصلي ـ بمحراب النافلة ـ «ما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعة، يسلم بين كل ركعتين، ويوتر بواحدة.» (50)

وللوتر في ليل العبد وميض الخاتم الدري، تختم به دورة الفلك في كل ليلة، قبل انفلاق الفجر الجديد! وما نام عنه غصن عابد إلا بقيت تجلياته بتراء بغير خاتم! وللنبي الكريم صلى الله عليه وسلم حض أكيد للمحبين على جعله آخر كؤوسهم، وما زالت كلماته ترتفع بتعظيم الوتر؛ حتى قارب المطالع الخمسة. قال صلى الله عليه وسلم:

ـ «اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترا!»(51).

ولدين الله سعة ويسر، ورفق بالغصون الذابلة، إذ تتحرك الهوينى في طريق الله، ترجو رحمته وغفرانه.. بيد أنه ما كان لها أن تغفل عن رشفة الوتر، ولو بعد صلاة العشاء مباشرة، ذلك أن «من خاف ألا يقوم من الليل فليوتر أوله، ومن طمع أن يقوم آخره فليوتر آخر الليل! فإن صلاة الليل مشهودة! وذلك أفضل.» (52)

ويبقى جوف الليل الساجي، سرا من أسرار الله، عبر الزمان، يرشح به وابل الرحمة، فتؤتى القلوب أنوارها ضعفين: جمالا في الدنيا، وفردوسا في الآخرة! «وما يُلَقّاها إلا الذين صبروا، وما يُلَقّاها إلا ذو حظ عظيم!»(53).

❊ ❊ ❊

مع صفوف الملائكة

ها هو ذا الرسول صلى الله عليه وسلم يرمق هالة النور في صفوف المصلين، فينتبه إلى ما قد يعتريها من اضطراب، ثم يستفهم منبها:

ـ «ألا تَصُفُّون كما تَصُفُّ الملائكة عند ربها ؟

ـ فقلنا: يا رسول الله! وكيف تَصُفُّ الملائكة عند ربها ؟

ـ قال: يتمون الصفوف الأُوَلَ، ويتراصون في الصف!»(54)

تلك إذن تشكيلة الجمال في خميلة المصلين، دوالٍ من نور تتلاحم في احتفال بهيج، بين يدي الله. ولصلاة الجماعة في الإسلام ـ عبر الخمس المفروضة ـ كمال التوافق، وجمال التناسق، في قوافل المستضعفين إلى الملك العظيم. فما زالت قناديلها بين جوانح المحبين «تعدل خمسا وعشرين صلاة من صلاة الفذ»(55) أو ليست «صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته، وفي سوقه؛ خمسا وعشرين درجة»؟(56) ذلك ميزان المقامات العلى، في الفرائض خاصة. ولا أحب إلى الله من التقرب إليه بها، وإنما كمال التقرب بها أن تدخل أحوالها في بهجة الاحتفال الجماعي! فمدي غصونك يا أشجار الحدائق الندية يمينا وشمالا! لرص الصفوف الخاشعة بباب الرحمن، فهذه لحظة القلوب ذات الخفقة الواحدة، تنتظم للدخول على المولى الكريم، منضبطة بأدب النبوة؛ إشارات وحركات، يتابعون عليها الإمام، تنظيما لخفقات الجوانح. فيا أحباب الرحمن! «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فلا تختلفوا عليه؛ فإذا ركع فاركعوا! وإذا قال: سمع الله لمن حمده؛ فقولوا: ربنا ولك الحمد، وإذا سجد فاسجدوا، وإذا صلى جالسا فصلوا جلوسا أجمعون؛ وأقيموا الصف في الصلاة؛ فإن إقامة الصف من حسن الصلاة!» (57)

وللملائكة موافقة للإمام حمدا وتأمينا، فوافقوها! فإنه «من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» (58)

يا لجمال الموافقات بين صفوف الأرض وصفوف السماء! أي تناسق بديع هذا بين أغصان الأشباح وأغصان الأرواح؟ وأي تجاوب هذا بين خفقات الطيور ووميض النور؟.. فاسلكي أجنحة الشوق يا قلوب منتظمة في عقد الأنوار الدرية، صفوفا بهية الأحوال!

فتلك يد النبي الحبيب ما تزال تومض ذكراها في ذاكرة الأطياف المحبة، وهو يقيم بها الصفوف، حتى يتم استواؤها، فتنبجس الذكرى مشكاةً هادية قوافل السالكين إلى الله:

قال الراوي: و«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح مناكبنا في الصلاة، ويقول: استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم!» (59) «وكان أحدنا يلزق منكبه بمنكب صاحبه، وقدمه بقدمه» (60)، حتى إذا اتحدت الأنفاس؛ هب أريج الرضى من جنة الرضوان!.. فتزاحمي يا طيور وتنافسي على صدارة القافلة! فإن التجليات أول ما تفيض على الصف الأول، و«لو يعلم الناس ما في النداء، والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه؛ لاستهموا!» (61).

هذا دينكم أيها المسلمون! دين الجماعة، وإن الجماعة كمال الدين وجماله!.. هنا حيث تعلو الأرواح، في سبيكة الخمائل الذاكرة؛ تتمزق أغشية الاختلاف، وتختفي حجب المال والجاه، وتنطلق موجة التقوى، تغمر قلوب المصلين، فيطفو خفيفُ الجناح، ويرسب المثقلون بعلائق التراب!.. فيا صاح! هذا هو الصف: باب فسيح مفتوح على صقيع الدروب، يلجه المسدفئون سراعا! فرادى وزرافات، حتى إذا اكتمل العِقْدُ اشتعلت قناديل الأرواح، وغُلِّقَ الباب دون الشاردين والجاحدين! فلتخفقي يا قلوب مكبرة بإحرام طاهر، مع التوابين والمتطهرين! فإنه لا نور أدفأ ولا أبهى من وميض الخمائل! و«لو أنكم صليتم في بيوتكم، كما يصلي هذا المتخلف في بيته؛ لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم! وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحط عنه بها سيئة!»(62). يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة؛ إلا منافق قد علم نفاقه، أو مريض، إن كان ليمشي بين رجلين حتى يأتي الصلاة!»(63).

تلك شعيرة لا يجوز أن تتخلف في المجتمع الإسلامي بتاتا! فهي ربيع العطاء الذي يفوح عطرا على السائحين بحدائقها خاصة، ثم يتدفق لثى طيبا على أغصانهم، وأغصان الشاردين على السواء، حمايةً لتماسك المجتمع أن يتمزق أو يزول!.. فيا طير أرسل جناحك ضاربا إلى منازل النور، واشهد الصلاة في موكب السالكين! واحذر أن تتخلف عن شهود الخير! فيدهمك الدخان الرهيب فردا، ويحاصرك اللهب من كل الجهات!

ويشتد غضب النبوة على تارك الجماعة؛ فينطلق النذير محملا بعاصفة الشقاء:

«ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلا فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب، إلى قوم لا يشهدون الصلاة؛ فأحرق عليهم بيوتهم بالنار!» (64).

فيا عبد! هذه بشائر التوبة بارقة ترشح صيبا نافعا، فإذا الصلوات المكتوبات؛ أعواد خضراء، تورق في قلبك ظلالا ذات أنسمة من رياحين الجنة، فتأوي إليها مع أسراب المحبين، عسى يفيض المليك عليكم لحظتها من كوثر الغفران.. وإن «من توضأ للصلاة فأسبغ الوضوء، ثم مشى إلى الصلاة المكتوبة فصلاها مع الناس، أو مع الجماعة، أو في المسجد، غفر الله ذنوبه!» (65).

ـ وكيف ذلك يا رسول الله؟

ـ «ذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى الصلاة، لا يخرجه إلا الصلاة؛ لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى؛ لم تزل الملائكة تصلي عليه، ما دام في مصلاه: اللهم صل عليه! اللهم ارحمه!» (66)

وقد تخرج وأنت تقصد تجليات النور في صلاة الجماعة، فتنطلق الأسراب محلقة بتكبيرة الإحرام قبل وصولك، حتى إذا وصلت؛ كانت ومضات التجلي قد انحبست بالسلام! وتلسعك الحسرة على ما فات، فتتجه حزين القلب إلى سارية من المسجد، تدق باب الحبيب فردا، فإذا به ينفتح على مصراعيه، ويبرق نور الرضى مرحبا.. فيفيض عليك من جمال السابقين بهاء لا ينقص من بهائهم شيئا! حدثني وميض النور المتصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم راح فوجد الناس قد صلوا، أعطاه الله أجر من صلاها، وحضرها، لا ينقص ذلك من أجرهم شيئا!» (67).. ألا ما أشد عجبي من عطاء بلا حساب! لولا أنه فضل الله، والله ذو الفضل العظيم، فسبحانه من ملك كريم!

❋ ❋ ❋

هذه الصومعة السابحة في الفضاء ترفع إلى المولى أشواقها.. فيفيض عليها من بركات المحبة جمال وجلال.. ثم ترسل أنوارها جداول رقراقة في كل فضاء المدينة.. وينطلق الأذان، هنا منبع الخير هنا شلال السلام.. فهلمي أيتها الطيور المحبة إلى ظلال الله! فمن بين «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (...) رجل قلبه معلق في المساجد!» (68) فاخفقي يا قلوب بين السواري والأقواس! مصابيح لا تفتأ تنبض بالنور

المشوق بجمال الله!.. وتضرب القوافل قاطعة قفار النفس إلى عمران الجلال والجمال، عبر أنفاس خاشعة ذاكرة، فللطريق عقبات خمس، هي شرط الوصول إلى مقام العمران، فتزود يا ولدي بالصبر! ورتل: «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله، واليوم الآخر، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، ولم يخش إلا الله! فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين» (69) وتلتف مباني المدينة من كل الجهات، تشرئب بأعناقها إلى بيوت الله، ثم تنثر المآذن أزهار المحبة؛ سكينة مطمئنة على الأكواخ والأبراج على السواء، فإنما المساجد لله، وما كان لله كان فيؤه لجميع المؤمنين! فإذن لا عجب أن يكون «المسجد بيت كل مؤمن» (70) ففي فضائه المسكون بآثار التجليات الربيعية الناثرة مسكا ملائكيا، جذابا إلى حدائق الله؛ يجد المؤمن بهجة المواجيد، ودفء الموارد، في انتظار عطاء الله.. فأي مكان في التراب بعد ذلك يكون كوثرا ممدودا ببحار المحبة؛ إن لم يكن فضاء المسجد؟.. كيف لا وإن «أحب البلاد إلى الله تعالى مساجدها» (71)؟.. فلكم البشرى يا ناقلي الأقدام إلى الجماعات.. بشرى نبوية تغمر الظلمات نورا وهاجا، ما يزال ينهل من مشكاة الله جمالا لا يفنى أبدا، فيا صاح! هذا داعي الخير قد انطلق، نداء رباني المقاصد، يغمر المعمور أريجا مباركا، فأقبل ولا تتردد! إن كل المآذن الساعة قد تفتحت أزاهيرها المسقية بأنهار الجنة!.. وللأذان صدى من كلمات النبوة ما زالت تدعو أن «بشر المشائين في الظُّلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة!» (72) فإلى عمران القلب بنور الله! استسقاء لرحمته الواسعة، وفضله العظيم! بين جموع الفقراء الراغبين في غناه سبحانه. وأي غنى لقلب العبد أحسن من رضاه عز وجل؟

ألا وإن الرضى مقام يمد القلب بزيت الطمأنينة؛ فتضيء مواجيده فرحا بالله. فيا أيها العبد الملحاح! أرسل الجناح! وتعبدْ بالغدو والرواح؛ إلى قباب الجنة! فلك منها ما تشاء، حدائق وأنهارا، تمتد بين منازل الصدِّيقين والصالحين. وإنما هي دوالٍ أورقت من نسيم الخطوات، المشوقة بخمائل الجماعات؛ فإذا وقع الأقدام أصداء لنبض القلب المشوب بلقاء المحبوب! قد سلك معراجه إلى نعم الرحمن الفياضة، بين الغدوات والروحات. ذلك أن «من غدا إلى المسجد أو راح؛ أعد الله له في الجنة نزلا، كلما غدا أو راح!» (73) وأيما «رجل راح إلى المسجد فهو ضامن على الله! حتى يتوفاه فيدخله الجنة، أو يرده بما نال من أجر!» (74) وإنه لسياج النور يحيطك من كل الجهات، حففا

من كل العوارض الظاهرة والخفية.. وما كان لجار الله إلا أن يكون عزيزا، فأي عذر يمنعك بعد هذا؛ أيها العبد الشارد في متاهات الدخان؛ من شهود تجليات الأذان، بين أجنحة الطير الواقفة بباب الرحمن؟.. ألا ما أوهى أعذار القلوب! المثقلة بغبار الركون إلى أغلال العنكبوت! فرحالك، رحالك يا سالك! عند كل نداء، تلق مكانك بين قافلة المحبين الغارفين من كوثر الله، الممدود جداول من نور إلى الزهور المتفتحة صفوفا خاشعة بين يديه تعالى. فكيف بك إذا وليت مدبرا، والفضاء يمتلئ بأصداء الأذان العظيم؟ بأي ركن تفتح قوس الصلاة، وها الخير كله يتدفق رقراقا على أغصان الخمائل المصطفة خلف الإمام؟! وأما «من سمع النداء فلم يأته فلا صلاة له إلا من عذر!»(75).

فارحلي يا قلوب!.. وتقاطري زُمَرا، وفرادى، إلى مورد الملك الكريم! فهذا الأذان الجميل قد أيقظ الجوانح الحية بحب الله في كل مكان، وتحركت القناديل سارية بين الدروب، عبر كل الجهات، مجذوبة إلى وهج الصوامع الممدودة بمحبة الله.. وترتد الخطوات نورا مؤنسا على كل قادم، فإذا المشي إلى الله جمال عجيب، يمد القلب بكؤوس تطلب لذاتها، و«الأبعد فالأبعد من المسجد؛ أعظم أجرا!» (76).

هنا بيت الله: عبير الربيع يتردد بين الأرض والسماء، وأريج المسك يروح ويغدو، بين أجنحة الملائكة وأجنحة المصلين، فلفضاء الجامع أنفاس تعبق بروائح الطيب البهيج. فيا أيتها الأغصان تخلصي من أوراقك النتنة! وفتحي زهورك الندية قبل نقل الأقدام إلى المساجد!.. عجبا! وأي عود هذا الذي احترقت أفنانه بأدخنة الخبائث، يمكن أن تحفه ملائكة الرحمن، وهو في مصلاه؟ ألا وإن المسجد باب من أبواب الجنة، فما كان على من دقه إلا أن يتجرد من أدخنة الجحيم، وروائح الصلصال الكريهة!

فتأدبي يا نفوس بأدب النفس الطاهرة! واغمري الجوانح زكاة من حوض النبوة! واسكبي في أقداح القلب ما استطعت من سنن الهدى المتدفقة من كلمات الرسول صلى الله عليه وسلم:

ـ «من أكل البصل والثوم والكراث؛ فلا يقربن مسجدنا! فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم!» (77) تلك ومضة من بارقة التنبيه بالأدنى على الأعلى، فتجردي يا قلوب من كل روائح العلق المسنون! وجميع أنواع الخبائث! عند كل مسجد. فإنما المساجد مكان يحتفل فيه أهل الأرض وأهل السماء؛ بمناجاة ملك الأرض والسماء.

فبأي الورود ستفتح يا غصن فصل الاحتفال؟ وهذا مولاك يدعوك أن تأتي في كامل ربيعك الزاهي.. كل الأغصان الساعة تتفتح براعمها لدى البوابة الخضراء؛ استعدادا للحظة البهيجة، ورودا ذات أريج ما زال ينهل من جمال الرحمن؛ أنداء ترشح من الأمر الإلهي العظيم أن «يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد!» (78)

.. ثم ارفع قدمك اليـمنى! لتخطو إلى داخل بيت الله خطوتك الأولى، بين دوالي الجنة!.. فتجد ريح المسك الفواح من حدائق النبي عليه الصلاة والسلام. ويتحرك غصنك شوقا إلى موكبه الجميل، فتبدأ بالسلام؛ امتثالا لطلبه صلى الله عليه وسلم أنْ «إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي! وليقل: اللهم إني أسألك من فضلك!» (79)

وتدخل بيت الرحمن فتغمرك الرحمة: راحة كاملة تنساب في قلبك الذاكر، تستغرق كل أفنانك وأزهارك، فإذا الأنفاس تتسابق حاملة نبضات الشكر لله؛ إلى الأعتاب العليا.. تحية طيبة مباركة إلى جلال الملك الودود، ذلك أدب العبد الداخل عتبة الملك ذي الجلال. قال معلم السالكين:

ـ «إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين!»(80).. حتى إذا فرغت من تحية مولاك؛ جلست ترشف من نعمه رشفات السكينة والجمال، وتقطف من حدائق انتظار الموكب البهيج في الصلاة الجامعة؛ أسرارا تعمر قلبك بمشاهد النور في مملكة الله. فيزداد الشوق توهجا ـ بين ضلوعك ـ إلى استدرار لطائف الصلاة.. «ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة!» (81)

ذلك فيض من تجليات الصلوات الجامعة، المتوهجة بالمساجد خاصة.. مواكب من قوافل السائرين إلى الله. ما زالت تستضيء بمشكاة الله، وتتطهر بأنوارها الدرية، بينما تركض حوافر العواصف من وراء أسوار الجامع، فتِنًا قاسية الصقيع! فبأي شمعة ستدخل مواجيد الفريضة فردا؟ يا أيها الجناح الشارد عن خمائل المسجد الحصينة؟.. عجبا!

ألا يا طيور المحبة أوقدي قناديل المكتوبات؛ جماعات جماعات! عسى أن تنالي من منازل السير مقامَ المتقين، الذين سيقوا «إلى الجنة زُمَرا حتى إذا جاؤوها.. وفُتِّحَتْ أبوابُها، وقال لهم خزنتها: سلام عليكم، طبتم، فادخلوها خالدين! وقالوا: الحمد لله الذي صَدَقَنا وعدَه، وأورَثَنا الأرض؛ نتبوأ من الجنة حيث نشاء! فنعم أجر العاملين!» (82)

* * *

بهجة الجمعة

كان الفلك قد استكمل دورة أسبوع، من مشاهدات الكوكب الدري، السائر في فضاءات الصلاة.. فاندفع نوره الفضي موجا، يترقرق شوقا وفرحا، على فجر الجمعة.

و«خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة: فيه خُلِق آدم، وفيه أُهْبِط، وفيه تِيبَ عليه، وفيه قُبِض، وفيه تقوم الساعة. ما على وجه الأرض من دابة إلا وهي تصبح يوم الجمعة مُصِيخَةً؛ حتى تطلع الشمس؛ شَفَقًا من الساعة، إلا ابن آدم!.. وفيه ساعة لا يصادفها عبد مؤمن، وهو في الصلاة يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه!»(83) فهو يوم يجمع بين بهجة الجمال؛ وهيبة الجلال!.. فلمقامه بالقلب أحوال ذات أذواق، تجمع بين الخوف والرجاء. وكلاهما ضروري للعبد في سلوكه إلى الله.

فيا أيها الطائر المحب! هذا فجر العيد، فأرسل أغرودة الاحتفال!.. فكل الأنفاس في جميع الكون، تتهيأ الساعة لافتتاح اليوم العظيم، والنظر من مرآته إلى كل صفحات الأسبوع!

كانت ريح من عالم الغيب تهب على عالم الشهادة، فيخفق القلب وجلا؛ استشعارا ليوم الحساب!.. فإذا الأغصان تتجرد من كبريائها وتمضي خاشعة البصر، تنقل الأقدام في سكون ووقار؛ إلى المسجد الجامع.. فتتشكل مظاهر الحشر المهيبة، في تقاطر المصلين من كل درب وصوب؛ وفي اجتماعهم خشعا صامتين، يصغون بكل الجوارح إلى الله، تعبيرا عن البساطة، والصفاء، والتجرد من كل ألوان الحياة الكاذبة! وللمصطفى صلى الله عليه وسلم تنبيه إلى هذا المعنى الجميل، بكلمات نبوية صادقة:

ـ «البسوا من ثيابكم البياض! فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم!» (84) وفي ومضة أخرى منه عليه الصلاة والسلام: «فإنها أطهر وأطيب» (85).

وينتشر في النفس إحساس بعظمة هذا اليوم، المحمل بعدد من الذكريات الكونية الجليلة..

أنت الساعة بين يدي الله، أفقر ما تكون، وأضعف ما تكون! تجثو وسط الناس الذين جاؤوا يجأرون إلى الله؛ جزعا من ثقل الخطايا الضاربة بسوادها بين الجوانح.. هذه مواجيد الحساب مادت بغصنك يا صاح، وما بينك وبين هوله إلا أن تغمض عينيك

وتفتحهما!.. فانشر صحائف الأسبوع، وافحص أوراقها صفحة صفحة! وكلمة كلمة!.. أفيها ما يستحق أن تعرضه على مولاك؟

....

آهٍ أيها العمر المتناثر ورقات خريفية تترى!.. هذا جمال العيد احتفال بلحظات الغفران العظيم، فما تذكرك لما فات؟ وما تفكرك فيما هو آت؟ فإنما ذلك أدب الدّخول على الرحمن، من بوابة الجمعة البهيجة. فاغرف من ماء الطهور معاني الصفاء؛ أنوارا فياضة من تجليات الروح!..

وتطهر يا ولدي! «إن هذا يوم جعله الله عيدا للمسلمين، فمن جاء إلى الجمعة فليغتسل! وإن كان طِيبٌ فليمس منه! وعليكم بالسواك!»(86) فإن شلال الغفران من يوم الجمعة تنطلق جداوله الرقراقة من فلق الصبح إلى آخر النهار! وإنما يتدفق موجه البلوري لحظة الصلاة الجامعة. فانشر أجنحتك يا صاح لصبيب النور! تصف أوراق عودك المتعبة بأدخنة الأسبوع، فإذا هي ربيعية الإشراق، طيبة الأنفاس!..

فتطهري يا قلوب الطير السالك تطهري! فإنما الطهر بالتطهر، وإنه «لا يغتسل رجل يوم الجمعة، ويتطهر بما استطاع من طهر، ويدهن من دهنه، أو يمس من طيب، ثم يروح إلى المسجد، ولا يفرق بين اثنين، ثم يصلي ما كتب له، ثم ينصت للإمام إذا تكلم؛ إلا غفر له ما بين الجمعة إلى الجمعة الأخرى!» (87) فإذا أزاهيرك المنصرمة تنبعث أنوارها في نفسك من جديد، ويتطهر ما فاح منها بروائح العلق المسنون، فلا يفوح إلا مسكا وعنبرا!.. ومُدَّ بعد ذلك جناحك لشلال النور الآتي من بعيد، يبشر بالخير الدافق في مستقبل الأغصان السالكة، بين فصول الدنيا وفصول الآخرة! متحريا ساعة الانبجاس العظيم. ثم اشهدْ صلواتك حاضر القلب يا عبدُ! «إن في يوم الجمعة لساعة لا يوافقها مسلم، وهو قائم يصلي، يسأل الله عز وجل خيرا إلا أعطاه الله تعالى إياه!»(88) وأشار صلى الله عليه وسلم بيده: يقللها!

ألا أيتها الغصون الراكنة إلى الطين أفيقي! فقد أُذِنَ للربيع أن ينطلق أذانه مبشرا بأنسام السلام، تغمر الفضاء، وترشح جمالا نديا في كل مكان!.. ويصدر الأمر الإلهي، فريضة ربانية، تقرر جلال الاحتفال: «يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله، وذروا البيع! ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون!» (89)

فالبدارَ البدار! يا أيتها النفس الشاردة في الفيافي والقفار، بين مدن المزابل والدخان! لا تعرضي عن نداء الملك العظيم! فتحرمي من فيض كرمه الصافي، وأريج منِّه الكريم! فإذا الأجنحة المتعبة تقع أسيرة العناكب، تضرب عليها غشاوة من غبار الغفلة، التي تختم على القلب الراكن إلى التراب! تلك لطائف العلم تفيض من فم النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعظ أمته بجوامع الكلم المبارك:

ـ «لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات، أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونُنَّ من الغافلين!» (90) فبكري يا حناجر الطير بالتغريد! تفوزي بفضل البكور! وإن خير البكور بكور يوم الجمعة. فلتبادر يا جناح بالرواح إلى ظلال الله! تنل خير مكان بين يديه تعالى، تسجيلا موثقا إلى يوم القيامة! حيث «إن الملائكة ليقومون يوم الجمعة على أبواب المسجد، معهم الصحف، يكتبون الناس: الأول، والثاني، والثالث؛ حتى إذا خرج الإمام طويت الصحف!» (91) والتحق الملائكة بمجالس الإنصات!

ـ وما فضل المسابقة في ذلك يا رسول الله؟

ـ فضله أن «من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بَدَنَة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة. فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر» (92) فاجعل لك بين الملائكة مجلسا حسنا يا أيها العبد المحب! وبكر تبكيرا! عسى ألا تكون من المتأخرين! فيا أيها السالكون إلى الله! سابقوا إلى المقامات العلى من جنان الملك الديان! و«احضروا الجمعة! وادنوا من الإمام! فإن الرجل، لا يزال يتباعد حتى يؤخر في الجنة وإن دخلها!» (93). ذلك أن «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض! والفردوس أعلى الجنة، وأوسطها! وفوقه عرش الرحمن! ومنها يتفجر أنهار الجنة. فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس!» (94)

عجبا!.. فأي شيطان يصرفك يا غافل عن نداء الجمعة العظيم؟ وأي هوى يعصف بك في متاهات الظلام؟ فتردى بحميء الشهوات، وتنسى يومك العظيم، إذ تجرفك بهارج اليهود والنصارى الكاذبة، فتتخذ أعيادك أسبتا وآحادا!! كيف، وها إن «من تشبه بقوم فهو منهم!» (95)..؟ ولقد كذبوا والله في تعيينهم! فإنما «نحن الآخِرون، السابقون يوم

القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم، فاختلفوا فيه! فهدانا الله له؛ فالناس لنا فيه تبع: اليهود غدا، والنصارى بعد غد!» (96).

❊ ❊ ❊

فيا أيها السالك إلى الله عبر مقامات الركوع والسجود! هذا مقام الاحتفال، فجرد من مواجيدك حدائق وأزهارا! وأرسل جناحك شعاعا مباركا يسيح في مملكة الله!.. باب التجلي قد تفتقت خضرته عن أنهار الجنة، تتدفق مسكا وريحانا على صفوف المصلين. فأي أحمق هذا الذي تشغله أسواق الحرائق والدخان عن سوق الكمال والجمال؟ أولم تسمع بسوق الجنة؟ يا سلام!.. ألا وإنها لسوق حقا وصدقا! فاصغ إذن!:

كان الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم يرش بشارة الجمال على أصحابه في مجلسه البهي ويقول: «إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة! فيها كثبان المسك، فتهب ريح الشمال، فتحثو في وجوههم، وثيابهم، فيزدادون حسنا وجمالا! فيرجعون إلى أهليهم، وقد ازدادوا حسنا وجمالا، فيقولون لهم: والله لقد ازددتم حسنا وجمالا! فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم حسنا وجمالا!..» (97) فارسم بريشتك الولهى ما تشاء من طموحات الجمال! فستبقى ألوان هذه اللوحة آية من الإعجاز الجمالي، تشع بالتحدي الفني إلى يوم القيامة!

ألا فاقترب!.. اقترب أيها الجناح الشارد! وذق من كؤوس الاستقبال، ببوابة الجمعة، ما يتمتع به ضيوف الرحمن من نعيم مقيم، وتأدب عند ربك الملك العظيم، فإن لخشوع الجمعة سكون المخبتين، لا لغو، ولا إيذاء. واحذر نزغات إبليس! فما كل من صلى الجمعة قد صلاها، وإن «من لغا، وتخطى رقاب الناس كانت له ظهرا!» (98) وشتان شتان بين فريضة الظهر، وصلاة البهجة والاحتفال، في يوم سيد الأيام!

.. كان الإمام يخطب، وكانت الملائكة ترسل النور بأجنحتها على المصلين.. وللخطيب مواجيد تفيض ورعا، فتصيب الناس بلافح الشوق إلى رحمة الله ورضوانه، وتتعلق الأنظار والقلوب بالكلمات، وهي تنبعث من أشجان الإمام أحوالا، تتهادى بين خوف ورجاء، وهو يشهد على نفسه وعلى الناس قائما. فالرسول صلى الله عليه وسلم «كان يخطب قائما، ويجلس بين الخطبتين، ويقرأ آيات، ويُذكّر الناس.» (99) يُشْهِدُ اللهَ على خلقه أن قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة!

تلك مظاهر الاحتفال البهيج، في أجمل صورة من صور الاجتماع على ذكر الله، وإقام الصلاة: هالة من النور الوارد من بحر الغيب العجيب، ترتفع طبقات أعلى، حتى تتصل الأرض عبرها بالسماء! قال النبي صلى الله عليه وسلم مرغبا: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض، فضلا عن كُتّاب الناس، يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله؛ تنادوا: هلموا إلى حاجتكم! فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم:

ـ ما يقول عبادي؟

ـ فيقولون: يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك! (...)

ـ فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم!

ـ فيقول ملكٌ من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، وإنما جاء لحاجة!

ـ فيقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم!» (100) ذاك بحر الله الفياض! مطلق الامتداد عن الزمان والمكان! يطهر كل من جاوره، إن لم يصبه بموجه أصابه بنداه!

* * *

ألا فاحل من ميناء ذاتك المظلم يا ولدي! وغادر طين الصلصال! وانشر أشواقك أشرعة في بحر السلام! حتى تنفرج لياليك عن فجر الجمعة، الفياض بالخير والجمال. هنالك تجدد سفائنك وأشرعتك بذكر الله وإقام الصلاة، فيا أيتها الأشواق السائرة إلى الرحمن! لا منفذ إلى مقام الرضى إلا من معراج الجمعة، فاسعي إلى ذكر الله، وذري ألوان الطيف الواهمة! ومن يدري؟ فربما لا يدور بك الفَلَكُ إلى فجر جمعة أخرى..! وأي ندم بعدها يعرج بأحزانك إلى منابع الغفران؟.. آه يا لقب! ومن للجناح المثقل بغبار السفار إذا لم يدركه وابل العزيز الغفار؟

هذا يوم الغيث الطهور، فمدي أوراقك يا غصون إلى بارقة المحبة! واستدري من وميض الرضى عتقا من النار!.. هنا كمال التجلي على الخُشَّع الرُّكَّع. فيا أيها الغصن السارب في أدخنة الدروب الغافلة!.. استجب لرياح الإيمان! والتحق بشلال الرحمة الثجاج!.. لا تفتك بهجة الاحتفال العظيم، بين يدي الملك الكريم!

هوامش الفصل الرابع:

(1) النساء: 103.
(2) الإسراء: 78
(3) رواه البخاري.
(4) متفق عليه.
(5) رواه مسلم.
(6) رواه مسلم.
(7) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه الألباني في (ص-ج.ص): 2823.
(8) متفق عليه.
(9) البقرة: 249.
(10) متفق عليه.
(11) رواه مسلم.
(12) متفق عليه.
(13) رواه البخاري.
(14) متفق عليه. و(وَتِرَ): أي فقد.
(15) متفق عليه.
(16) البقرة: 238.
(17) يوسف: 87.
(18) رواه مسلم.
(19) رواه ابن أبي شيبة وأحمد والطبراني في الأوسط، وصححه الألباني في (ص.ج.ص): 3834.
(20) البقرة: 114.
(21) الأنعام: 79-80.
(22) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم. وصححه الألباني (ص.ج.ص): 2823.
(23) متفق عليه.
(24) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وصححه الأباني (ص.ج.ص): 5314
(25) رواه أبو داود وأحمد والبيهقي وصححه الألباني (ص.ج.ص): 1043.
(26) متفق عليه.
(27) رواه مسلم.
(28) العنكبوت: 45.

(29) البقرة: 253 ـ 254.

(30) السجدة: 16.

(31) الذاريات: 17

(32) رواه عبد بن حميد، والعقيلي، وأبو نعيم، والقضاعي، والحاكم، وصححه الألباني: (ص.ج.ص): 6222.

(33) الزمر: 10.

(34) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو داود، وصححه الألباني (ص.ج.ص): 2020.

(35) رواه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم، وصححه الألباني (ص.ج.ص): 3518.

(36) رواه مسلم.

(37) رواه الترمذي والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي، ثم صححه الألباني (ص.ج.ص): 1173.

(38) متفق عليه.

(39) متفق عليه.

(40) ق: 37.

(41) المزمل: 7

(42) رواه مسلم.

(43) رواه مسلم.

(44) رواه أبو يعلى والديلمي وصححه الألباني (ص.ج.ص): 3821.

(45) متفق عليه.

(46) رواه أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي وابن عساكر والطبراني وابن السني وصححه الألباني (ص.ج.ص): 4079.

(47) الإسراء: 109.

(48) رواه الجماعة.

(49) رواه مسلم.

(50) رواه الجماعة إلا الترمذي.

(51) رواه البخاري.

(52) رواه مسلم.

(53) فصلت: 34.

(54) رواه مسلم.

(55) رواه مسلم.

(56) متفق عليه.

(57) متفق عليه.

(58) رواه البخاري، وهو متعلق بقول: (ربنا ولك الحمد)، وأما المتعلق (بالتأمين) فهو متفق عليه.

(59) رواه مسلم.

(60) رواه البخاري.

(61) متفق عليه.

(62) رواه مسلم.

(63) رواه مسلم.

(64) متفق عليه.

(65) رواه مسلم.

(66) متفق عليه.

(67) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم. وصححه الألباني (ص.ج.ص): 6163.

(68) متفق عليه.

(69) التوبة: 18.

(70) رواه أبو نعيم في الحلية، وصححه الألباني (ص.ج.ص): 6802

(71) رواه مسلم.

(72) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني (ص.ج.ص): 2823

(73) متفق عليه.

(74) رواه أبو داود وابن حبان والحاكم، وصححه الألباني (ص.ج.ص): 3053

(75) رواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني (ص.ج.ص): 6300

(76) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم والبيهقي، وصححه الألباني (ص.ج.ص): 2759

(77) رواه مسلم.

(78) الأعراف: 29

(79) رواه أبو داود وابن ماجه والدارمي والبيهقي، وصححه الألباني (ص.ج.ص): 515. ونحوه عند مسلم وغيره بلفظ: (فليصل) بدل (فليسلم) الأولى.

(80) متفق عليه.

(81) متفق عليه.

(82) الزمر: 70ـ71

(83) رواه مالك وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم، وصححه الألباني (ص.ج.ص): 3334

(84) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان، وصححه الألباني: (ص.ج.ص): 1236.

(85) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه الألباني (ص.ج.ص): 1235.

(86) رواه مالك والشافعي مرسلا، ورواه ابن ماجه والطبراني في الصغير، وصححه الألباني (ص.ج.ص): 2258.

(87) رواه البخاري.

(88) رواه الجماعة.

(89) الجمعة: 9

(90) رواه مسلم.

(91) رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني والضياء، وحسنه الألباني (ص.ج.ص): 1958.

(92) رواه الجماعة إلا ابن ماجه.

(93) رواه أحمد وأبو داود والبيهقي والحاكم، وصححه الألباني (ص.ج.ص): 200

(94) رواه ابن ماجه والحاكم وابن عساكر، وصححه الألباني (ص.ج.ص): 3121.

(95) رواه أبو داود، والطبراني في الأوسط، وصححه الألباني (ص.ج.ص): 6149.

(96) رواه البخاري.

(97) رواه مسلم.

(98) رواه أبو داود وابن خزيمة، وصححه الألباني (ص.ج.ص): 6067.

(99) رواه مسلم.

(100) متفق عليه.

الخاتمة

فاتحة خير..

ما بقي وقت أكثر مما ضاع يا صاح!.. فلحاقا بالطير المغردة على حوض الطهور!.. واغرف وضوءك من النور! عسى أن تتفتح أغصانك رياحين وأزهارا، تستمد طيبها من عبير الجنة، وأنداءها من حوض الرسول صلى الله عليه وسلم، فللعود نضرته الربيعية، وطلعته الريانة، التي لا تذبل أبدا.

.. هذا الشوق اللافح قد ألهب الجوانح العارفة بالله، فاستجمع العطش منها خفقات القلب؛ توقا إلى بشائر النبوة.. فما حوضك يا رسول الله؟

ـ «حوضي: مسيرة شهر! وزواياه سواء! وريحه أطيب من المسك!»(101) «ماؤه أشد بياضا من اللبن! وأحلى من العسل! وأكوابه عدد نجوم السماء! من يشرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا!» (102)

كانت الحرائق تحيطك من كل مكان.. وأصوات الشياطين تناديك من خلال الدخان، تزين لك أعمالك، وألوانك، في حياة الأطياف الواهمة، والشهوات التافهة، فتحس بثقل الجناح، ورغبة حزينة في الركون إلى التراب..!

فوا أسفاه..!

وتعصف الرياح مذكرة بأيام الله.. كانت الأدخنة أشد ما تكون، والروائح أنتن ما تكون!.. وتتسع صحارى الشرود مبدية عن غوائلها الرهيبة.. فيميد غصنك رهبا من المصير المجهول!

ـ أين تريد يا ولدي؟..

....

وتومض بارقة في السماء.. فترتعش أفنانك لجلال النور وجماله..!

وينطلق الأذان شلالا صافيا، يغمر الكون: الله أكبر!.. الله أكبر!... حي على الصلاة!... حي على الفلاح...!

ويمتد أمامك شعاع جميل، يتشكل طريقا معشبة، ذات خضرة من نور، تمضي صعدا إلى المسجد العالي.. وترى الغصون تتحرك من هنا وهناك: خطوات خاشعة، ذات هالات من بهاء، تشع طهرا وصفاء، وتخفق بالمحبة والرضى؛ تلبية لنداء الملك الكريم الداعي إلى مقام السلام!

كان نداء الشيطان الساعة في قلبك أضعف وأبعد! ثم تهب خاتمة النشيد العظيم: (لا إله إلا الله..!) عبيرا رباني الأريج، فتخشع لجلال الحقيقة الكبرى: لا إله إلا الله..!

ويغمرك الشوق إلى جمال السلام، فتنطلق مسرعا، فرارا إلى الله!.. حتى تقوم في الصف ندي الأغصان من أثر الطهور.. كانت البارقة ما تزال تومض في السماء، وللأقواس ارتجاج من تراتيل الصلاة!.. تتدافع موجات من نور نحو الفضاء، فتتوهج الصوامع للحظة المباركة، ثم تتجرد شاهدة على المتخلفين!

....

كان البرق شديدا من غير سحب، ولا ضباب! وكان قلبك خفاقا بمواجيد الشوق العظيم، وأحوال الراحة الشاملة.

لحظة؛ وتهب رياح الجنة الطيبة، وينفتح محراب التجلي البهيج، فيتدفق رضوان الله بتكبيرة الإحرام:

ـ الله أكبر!..

وتطل عليك ذاكرتك بأيام الشرود، سحابة سوداء، فتقصمها بوارق الجوار الكريم.. وتنهمر الأمطار، بكاء سخينا في سكون! وتتحرك زهورك الندية، خوفا ورجاء، وللقلب أزيز دفين لدى استفتاح الصلاة:

ـ «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب! اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس! اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبَرَد!» (103)

وتغمرك الواردات الربانية بالبشائر العظيمة، متدفقة من بحار الرحمة الواسعة، كوثرا من نور. فما من جارحة فيك إلا وهي تستدر سلاما مقدسا، من القدوس السلام!.. وتسري السكينة بأنفاسك الحرّى؛ بردا وسلاما مستمدين من جمال كلمات الله، إذ يحدث

بها النبي، راويا عن ربه:

ـ «يا ابن آدم! مهما عبدتني، ورجوتني، ولم تشرك بي شيئا؛ غفرتُ لك على ما كان منك! وإن استقبلتني بملء السماء والأرض خطايا وذنوبا؛ استقبلتك بملئهن من المغفرة!.. وأغفر لك ولا أبالي!» (104)

فلك الحمد إلهي، كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك!

ولك الحمد إلهي، كما ينبغي لجمال عفوك، وكمال إحسانك!

ولك الحمد، ما شرد عن قصدك الغافلون، وما تزاحم على بابك العارفون!

ولك الحمد، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه!

سبحانك، أنت كما أثنيت على نفسك، لا أحصي ثناء عليك!

فلك الحمد، لك الحمد!

لك الحمد حتى ترضى!

ولك الحمد إذا رضيت!

* * *

وانتهى تسويده بالمحمدية، يوم الأربعاء رابع شعبان، سنة: 1413هـ، الموافق للسابع والعشرين من يناير: 1993م. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

وكتبه راجي عفو ربه فريد الأنصاري غفر الله له ولوالديه، وللمسلمين، آمين.

هوامش الخاتمة:

(101) متفق عليه.

(102) رواه الترمذي والحاكم وصححه الألباني (ص.ج.ص): 3162.

(103) متفق عليه.

(104) رواه الطبري، وصححه الألباني (ص.ج.ص): 4341.

فهرس المحتويات